قصص قصيرة

فرحة الأجراس

« من قصص البدايات »

عبد العال الحمامصى

الكتـــــاب : فرحـة الأجــراس
الناشـــــر : نـــادى القصـــة
لوحـة الغـلاف : مهداة من الفنان الكبير
فاروق حسنـــى
الطبـعـة الأولى : ٢٠٠٢ م
رقـم الإيـــداع : ٢٠٠٣/١٩٥٣

نـــادى القصـــة
٦٨ شارع قصر العينى القاهرة ت : ٧٩٤١٩٢٩



هيئة المكتب

عن هذه القصص..إيضاح!

* عندما كنت أجهز لنشر مجموعتى القصصية الأولى للكتاكيت أجنحة التى صدرت عن دار الكاتب العربى - هيئة الكتاب الآن - فى عام ١٩٦٧. لم تكن متاحة لى عديد القصص التى نشرتها فى دوريات متعددة خلال أوائل الخمسينيات من القرن العشرين ومن أهمها مجلة قصتى التى كان يصدرها الأديب الراحل صبحى الجيار، وبعد تواصل المسيرة كانت تقع فى يدى أحيانا بعض هذه القصص التى يقدمها لى الأصدقاء أو بعض القراء... فأشعر بالندم لأننى تقاعست عن نشر هذه القصص فى مجموعة تسبق مجموعة للكتاكيت أجنحة وكان يمكن بالجهد أن أستجمعها لو حاولت... أما استجماعها بعد ثلاث مجموعات تكونت من خلالها الصورة القصصية عنى لدى النقاد والقراء فهذا ما كنت أجفل عنه وأهابه.. فكيف بعد بئر الأجاش - آخر مجموعة لى - أواجه النقاد والقراء بقصص

كتبتها وأنا أخطو فى أول الطريق ولكنى كنت أشعر بالحسرة لأننى أغفلت من تاريخى عشرات القصص التى لم تتضمنها أى مجموعة من مجموعاتى الثلاث المنشورة... وأغلب هذه القصص من العسير الآن أن أحصل على المجلات التى نشرت بها.

وذات ليلة..كنت أجلس بين بعض الأصدقاء وجاءنا الصديق الكاتب الكبير هشام السلاموني ليلومنى أمامهم لأن بعض أعداد مجلة قصتى وقعت فى يده وبها قصص لى - يراها جيدة - ولم يجدها فى أى مجموعة لى..وذكر لنا أسماء هذه القصص... ومن جديد لكز الحسرة الغافية... وكلما رآنى أنهال على بتقريعه الذى لم يعد قاصرا عليه وحده... إذن فلأفعلها وليكن ما يكون...هذه القصص لماذا أتبرأ منها... أليست هى أنا فى مرحلة ما من عمرى... أليست هى السلم الذى صعدت عليه إلى ما بعدها... وتبقى العقبة..أين أجد هذه القصص... أعنى المجلات التى نشرت بها وأغلبها اندثرت... تطوع الزميل مصطفى عبد الوهاب بأن يبحث لى عنها فى مخلفات صديقه الراحل صبحى الجيار حيث نشرت غالبية قصصى بمجلة قصتى التى كان يصدرها ولكنه أخفق فى العثور على أعداد

المجلة.. تذكرت الزملاء الكبار الذين كانوا ينشرون فى المجلة مثل صبرى موسى وأحمد بهجت وكمال مرسى - وأخفقت أيضا فى العثور على الأعداد .. وفى لحظة يأس وافتنا الزميلة الأخت سلوى مصطفى بومضة أمل... قالت بأن أعداد المجلة يمكن أن نجدها فى محفوظات دار الكتب... كانت الفكرة غائبة عنى وتكرمت بمساعدتى فى هذه المهمة حيث وجدنا مجلدات المجلة كاملة ولكن بعض المجلدات كانت أعداد المجلة فيها مكررة وتنقصها بعض الأعداد ومن المؤسف أن هذه الأعداد بها قصص لى... ولكنى حمدت الله أن وجدت فى هذه المجلدات تسع قصص لى نشرت خلال عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٥... حمدت الله أن عثرت على المفقودين متمنيا أن يوفقنى الله فى العثور على بقية مانشرته فى قصتى وفى غيرها.

أما قصة أمينة وقصة رجل لفرنسا اللتان عمدت إلى إضافتهما للقصص التى نشرت فى قصتى فهما ما أتيح لى من قصص مخطوطة لم يتح لها النشر من قبل وكنت أبعث بها إلى الأدباء الذين كنت اتبادل معهم الرسائل من أقاليم متعددة خلال النصف الأول من العقد السادس من القرن الذاهب ..وكنت

وقتها أقبع فى أخميم بلدتى وأحرر بعض أبواب الأدب فى مجلة الصباح القاهرية مما أتاح لى تكوين صداقات مع كثرة من أدباء الأقاليم كانوا يراسلوننى علي عنوانى «أخميم» حيث كنت خريصا على وضع اسم بلدتى بجانب اسمى.. وأعود إليهما.. أمينة ورجل لفرنسا الأولى قدمها لى صديقى الحبيب الفنان التشكيلى ابن أخميم الحسينى الشريف فى أول مهرجان أدبى أقامته أخميم ومحافظة سوهاج لتكريمى مع أوراق أخرى تخصنى وجدها بين مخلفات أحد أقربائه... واحتفظ بها ليقدمها هدية لى فى أول مهرجان يقام لى...أما رجل لفرنسا فمنذ ثلاثين عاما قدمها لى الصديق الأديب مصطفى كمال فليفل حيث وجدها ضمن أوراقه أيام إن كنا نتبادل رسائل الصداقة بين أخميم ودمنهور وعندما قرأها منى الصديق الناقد خليل كلفت بعد أن أهدانيها الصديق فليفل أشار على بأن أنشرها..ولم استجب لنصيحته معتقدا أننى تجاوزت فنيا مرحلة أواخر الاربعينات واوائل الخمسينيات التى توالت فيها قصصى المنشورة والقصص التى لم يتح لها النشر... ولكنى الآن مادمت فعلتها واستجمعت بعض قصصى المنشورة فلايضيرنى

أن أضم إليها ما أتيح لى العثور عليه من قصص مخطوطة... وما أكثر المفقود حتى الآن من المنشور والمخطوط.. بقى أن أقول أننى لم أغير حرفا واحدا فى هذه القصص منشورها ومخطوطها... ومهما يكن من أمر ما يمكن أن يقال نقديا عن قصص البدايات تلك... إلاأننى أتقدم بها بلا خجل..وربما كنت أكتم عنكم بعض الفخار!!

عبد العال الحمامصى

هذه المجموعة عن أشواق الروح

الدكتور محمد حسن عبد الله

- ١ -

حين حدثني الأستاذ عبد العال الحمامصي عنرغبته في إعادة هذه المجموعة من قصصه القصيرة (المبكرة جدا) فإنني رحبت بهذه الرغبة من حيث المبدأ، لأن استكمال الصورة الإبداعية لكاتب لاتفقد أهميتها، حتى لو كان هذا الكاتب قد تجاوز بداياته، وطور في أدواته، واكتسب - بالدأب والاجتهاد - شخصية واضحة الخصوصية في كتابات ما بعد تلك البداية المبكرة. إن أسئلة «النقد» في هذا المقام يمكن أن تضيء مساحات واسعة لا تنحصر في ذات الأديب الكاتب زمن الكتابة(وقد كتبت هذه القصص الإحدى عشرة في عامي ١٩٥٤ و١٩٥٥) بماتدل عليه الموهبة من قدرة على التنوع الموضوعي، والتشكيل التقني للمادة القصصية، ومدى امتلاك ناصية اللغة

الفنية، وإنما تتجاوز هذه الذات إلى المجتمع الحضارى والثقافى الذى تبادل معها حالات من التفاعل وإعادة التأهيل.. بل إن التجاوز ينبغى أن يمضى إلى زمن القراءة - الآن - بما يعنيه هذا الخط الواصل بين زمن الكتابة (١٩٥٤) وزمن القراءة (٢٠٠٢) بالنسبة للكاتب، وللمجتمع، وللقارىء أو الناقد بعده قارئا!! إن هذه الجوانب تتجاوز قدرة مقالة واحدة مطلوبة فى زمن قريب، ومع هذا القصور المتوقع من جانبى فقد رحبت - مرة أخرى - بأن يؤثرنى الأستاذ الحمامصى بكتابة هذه المقدمة، التى أعادتنى إلى أجواء تلك الفترة الزاهرة الواعدة فى كل جهات الحياة المصرية خاصة، وقد تركت هذه الأجواء المتطلعة المتفائلة طابعها القوى على قصص عبد العال الحمامصى، الشاب المفعم تطلعا وتفاؤلا ورغبة فى القضاء على الضعف وتمهيد الطريق لقيم اجتماعية إنسانية جديدة. لقد تزامن ظهور هذه القصص مع بزوغ نجم جمال عبد الناصر، ففى هذين العامين أسفر وجهه من خلف محمد نجيب، وتجلى بلا قناع، وأصدر فلسفة الثورة وقال: ارفع رأسك يا أخى، واختار الشرق السوفيتى بعد أن خذله الغرب الأمريكى ودون مجازفة فى التناظر، فإن هذه

المجموعة من القصص القصيرة ، موضوعا ، وتشكيلا ، تتبنى هذه المقولات نفسها ، تحديدا ، أوتأويلا. ولكن الكائن الإبداعى ليس استثناء فى عمل قوانين الطبيعة، إنه خاضع ومتأثر بجميع مكونات وراثته الخاصة، وتربته الأصلية، كخضوعه لمطالب النوع الأدبى الذى اختاره قالبا له. وحين نضع هذه الأقطاب المؤثرة فى علاقة، فإنها لن تكون عامل سلب فى شخصية الكاتب، وإنما الأمر على عكس هذا: إنها التى تفسح أمامه مجال تأكيد ذاته، فإذا كانت بعض المؤثرات تدفعه دفعا إلى الانتظام فى السرب وترديد ذات النداء، فإن بعضا آخر يجتذبه إلى أصول بعيدة، لا تلبث أن توشح هذا النداء نفسه بألوان وإيقاعات خاصة تؤكد انتسابه إلى صاحبه، فى مواكبة لانتسابه إلى مرحلته. فى العام ذاته (١٩٥٤) - وكنت طالبا فى منتصف المرحلة الثانوية (الأزهرية) طبعت أول مجموعة قصصية من (تأليفى) فى كتيب صغير وزعته على أصدقائى بالمنصورة . هذا التوحد أو الاتفاق فى التاريخ لابد أن يغرى بعملية مقارنة ولو من بعض الوجوه، هذا شىء كامن فى العقل البشرى المكون من أنساق ومسارات!! رجعت إلى مجموعتى (وكانت بعنوان أول همسة) بقدر

ماتستبقى الذاكرة، لأننى لا أملك منها نسخة واحدة - شأن قصص هذه المجموعة للحمامصى قبل أن يتطوع محب له بالبحث عنها وتقديمها إليه - من ثم غابت فروق الأسلوب ، غير أن القدر الباقى للمقارنة كان فى صالح عبد العال الحمامصى دون تردد، فما أذكره عن مجموعتى أنها كانت مغرقة فى الذاتية أو قريبة جدا من العالم الخاص (الضيق) لذات الكاتب، وأن القرية كانت البيئة المهيمنة، كما كان الكتاب طريقا إلى مخاطبة القارىء، وهوطريق ضيق جدا ، ومنقطع. أما الفتى القادم (أو القابع) فى الصعيد فإنه يحرر بيئة القصة من سطوة المكان، إذ ينوع، أو لا يحدد تماما ، بقدر ما يخايل ويقرب، وهنا تكون الشخصية أوالموضوع هوالذى يصنع الهيكل الأساسى، وقد يتحقق توازن معقول بين هذين المحورين فنحصل على بناء فنى له قيمة تشكيلية خاصة، تعرفها كتاباته فى المراحل التالية. وأيضا فإن السعى إلى نافذة عامة، مقروءة، فى العاصمة(مجلة قصتى التى كان يصدرها الأديب القاص صبحى الجيار) يختلف فى دلالته على الثقة فى المستوى ، والتطلع إلى الآتى، عن طبع كتيب لا يقرؤه غير الزملاء!!

هذه ملامح عامة عن زمن الكتابة، وما كان يحمل من تطلعات وإمكانات، وكيف تجد طريقها إلى موهبة ناشئة، فتستقر فى صميمها، فى حين لاتشغل من موهبة أخرى غير الهامش ، ولعل هذا يفسره، أو يفسر ماجرى بعد من استمرار كاتب فى ذات الاتجاه، وتوحيد روافده وتعميق مجراه، واستمرار آخر ولكن عبر تعدد الروافد والامتداد بها زمانا ومكانا.

تتكون هذه المجموعة ـ كما أشرت ـ من إحدى عشرة قصة، ومعدل القصة أربع صفحات من قطع المجلة، المتوسط، ومن بينها قصة فى نصف صفحة، بعنوان: عندما نجوع، وهى قصة فى رسالة،مبنية على مفارقة، فقد صادف الراوى / كاتب الرسالة طفلة تفترش الأرض، أشفق على بؤسها ، فمنحها مافى جيبه، وغطاها بمعطفه، وحين عاد إلى بيته راضيا وجد، أو اكتشف ـ أن أنامل الطفلة استلت من جيبه قلم الحبر الفاخر!!

لقد بدأت بهذه القصة لأتخلص منها، ليس لأننى غيرمتحمس لهذه القصص القصيرة جدا، القصة فى عمود (وقد أطلقت عليها منذ عشرين عاما: القصة الفلاشية) لترجيحى أنها تقرأ لمرة واحدة، ثم تفقد حضورها الأدبى، ليس لهذا السبب وحسب،

وهو على أية حال سبب شخصى لايصح أن يعترض موضوعية القراءة النقدية، وإنما لأنها لا تمثل كتابة عبد العال الحمامصى حتى فى مرحلته المبكرة التى نعايشها فى هذه المجموعة. إنها مبنية على مفاجأة، أو مفارقة، والمألوف أن الكتابات الأولى - عادة - تميل إلى هذه التقنية لإثارة التشويق ومحاولة إحداث صدمة للمتلقى تعويضا عن سطحية التحليل وغياب القدرة عن تفجير الدهشة من باطن اليومى المعتاد، وليس من النادر أن يفطن القارىء إلى عملية استدراجه المكشوفة إلى الخاتمة الانقلابية، وهنا تفقد القصة - من هذا الصنف - ميزتها التى قد تكون الوحيدة!! لدينا هنا عددا من هذا الصنف نفسه، مع تحفظ مهم، وهوأن القصة - عند الحمامصى - ليست مبنية على هذه المفاجأة، ليست استدراجا لإحداثها، وإنماهى تبنى - كما قدمت - على الموضوع ،أو الشخصية،انفرادا، أو توازنا ، فإذا جاءت لحظة المفاجأة، قد لانجد لهامن إضافة غير أنها استجماع لما سبق من طرح الموضوع، أو الغوص فى تحولات الشخصية عبر معاناة طويلة، فكأنها - هذه المفاجأة - تماثل كلمة انتهى التى كان يحرص القدماء عليأن يختموا بها مقولاتهم،

التى نعرف أنها انتهت حتى لو لم ينصوا على هذا باللفظ. أما السبب الأقوى لإزاحة هذه القصة المشاغبة، فلأنها تسير عكس الاتجاه، تمضى وحدها ضد التيار، تيار مرحلة الخمسينيات، وتيار قصص المجموعة كلها، إنها تحريض على الحذر والتحفظ فى إبداء العطف على المطحونين (وهل هناك من طحن أقسى من طفلة تتوسد الأرض فى ليلة باردة؟) وإثارة لتوقع المجازاة بالإساءة لمن بدأ بالإحسان، وحتى مع الترفق (التأويلى) ستقول إن الطبع غلاب، وإن الحية لا تملك إلاأن تلدغ حتى وإن كانت تضمر أنها... تقبل!!

إن العشر القصص التى تتكون منها هذه المجموعة، تقول عكس هذا تماما، إذ تتبدى ثقة عظيمة فى الإنسان،وقدرته الرائعة على الغفران، واستعداده للتنازل عن أخطائه وخطاياه إذا وجد من يبصره، أو يقربه:

* قصة: فى غمار الضياع - عن لص بائس لا يجد قوته، وهذا بسبب فقدان الجرأة، وإضمار الزهو بخداع الآخرين،إ نه - على العكس - خائف شديد الإحساس بالمطاردة، والذعر من المصير المتوقع.

* قصة: عش لأجلى - عن شاب يشعر بعبثية الحياة، وسخافة الوجود، ساقته قراءاته الفلسفية إلى إحداث فجوة فكرية بينه وبين الناس ، من ثم يسعى للانتحار، وعلى شاطىء النهر حيث يستعد للقفزة الفاصلة يتعالى بكاء لقيط حديث الولادة، فيحمله ويعود، ليملأ به تلك الفجوة المخيفة بينه وبين الحياة.

* قصة: لم يعد أعمى - عن الشاب الثرى المثقف الذى فقد البصر فى حادث سيارة، فأساء الظن بالحياة والأحياء، ورفض الاقتران بفتاة تتزوجه إشفاقا عليه أو طمعا فى مكانته، بعد أن هجرته خطيبته عقب الحادث، غير أن أخته تتولى علاجه (النفسى) حتى تزوجه صديقة لها جميلة النفس غير جميلة الوجه، فإذا عاد إلى الشاب بصره بعد جراحة متقدمة تقنعت الزوجة بثياب المرضة حتى تراه ولا يعرفها، فإذا ألحف فى السؤال عن زوجته، وألحت هى فى التنكر، عرفها، ومسح دموعها بشفتيه.

* قصة: بلا خطيئة - يستخرج الخير من باطن الشر، فالمجرم المحترف حسن الدرنكى والآثمة المعروفة (المحترفة أيضا) نجوى، ينطويان على أعماق مناقضة للمعلن، كان

الدرنكى - دون الآخرين - لا يشترى جسد الخاطئة، وإنما يسعى إلى الزواج منها، كما أنه يساعد أم راوية القصة فى نفقات تعليم ولدها..

* قصة: أمينة - نعايش أيام التياترو الذى يجوب القرى والمدن الريفية بما فيها من قلق واستغلال غيرانسانى غاية فى البشاعة، نتعرف على عبده الفتى المتعلق بالفن، المستمتع بثراء أبيه ونفوذ أسرته، بأسلوب وديع، ولكنه - مع الزمن - يكتسب شراسة فائقة حتى التهديد بالقتل والاغتصاب لمن كانت قديما حلمه الرومانسى، غير أنها - فى لحظة غير محسوبة - تصفع عبده!! فلا يتفجر تهورا وفظاظة، وإنما يعود إلى منبعه القديم، فيركع أمام أمينة يطلب الصفح، كما فعل راسكو لنيكوف أمام سونيا (فى الجريمة والعقاب)وكما فعل بطل (البعث) عند تولستوى!!

أرجح أننا فى هذا التوقف الجزئى الهادف إلى رصد تحول النهايات إلى إبراز إرادة الخير، وأن نظرة الكاتب أورؤيته متفائلة وإنسانية إلى حد الإغراق الرومانسى، قد حصلنا قدرا من المعرفة بالأسلوب الذى يؤثره، وهو أسلوب البدايات فى الأعم

الأغلب، حيث يمتد الزمان القصصى إلى سنوات قد تستغرق العمر كله، أو أكثره، فلايكون أمام السارد إلاأن يطارد أحداثا تتوالد كى تملأ فراغ الأعوام، دون أن يعطى اهتماما موازيا بالمكان، أوبتمكين هذه الأحداث المنتقاة على أسس اجتماعية ونفسية. ولنا أن نتوقع حدوث تفاوت أو خلل في تشكيل المادة القصصية قد ينال من صدقها الذى يراوح بين نقص الشريحة، أو نقص التحليل.

ـ ٣ـ

إن الجوانب الإيجابية أكثر من نواحى الخلل فى البنية، فى قصص هذه البداية المبكرة، ولهذا استطاع الكاتب أن يتمرس بعد أن تمرن بالتجريب والاستمرار . يبدو نقص الشريحة فى قصة «الأستاذة حكمت» لقد كانت فرصتها طيبة جدا، وبخاصة زمن كتابتها (١٩٥٥) حيث كان توظيف «الإناث» مدرسات بمدارس الريف الابتدائية أمرا جديدا، مثيرا، دالا، بالنسبة للمجتمع الريفى المغلق على ذاته، الرافض لاستقبال أنثى غريبة، لقد وصفتها القرية بأنها تمعن فى الخلاعة» لمجرد أنها تزاول التعليم، وهو من أعمال الرجال. كانت بداية القصة واعدة إذا

اقترن قدوم هذه المدرسة واقتحامها المجتمع الذكورى بمداهمة الفيضان للقرية، إنه الخير الذى لانعرف كيف نستقبله، وقد توجست القرية منها الكثير من الضرر، ولكن الأستاذة حكمت (أو الأبلة فى الحقيقة) أغلقت بابها على نفسها. هنا أتذكر «شيلوك» - تاجر البندقية - لقد فسدت خطته تماما لأنه كان من المحال أن يقتطع رطلا - بلا زيادة أو نقص - فى حركة واحدة، ودون أن يسيل دما - من جسد المدين.بالمثل، ليس فى استطاعة قارىء أن يقترح على كاتب كيف يقتطع رطل اللحم، لكن المؤكد أن هذه القطعة أقل بكثير من المطلوب ، وأول الانزلاق أن تكون المدرسة عابثة - رغم بدايتها الجادة - إلى حد لايبالى بأحد، مع مراهق أصغر منها لايملك الجرأة على مجاراتها. يقول فى وصفها: «ملء عيونها تهافت، أشبه بنظرات هرة جائعة إلى سيد جشع، لحظة يحلم بها ذئب، ولم يكن لى مخلب»، ليس هذا وحسب، وإنمالم يكن للقرية - بعد البداية - أية درجة من الفعل أو رد الفعل!! الكاتب حر فى أن يجعل من قصته صورة من أحلام اليقظة لمراهق ريفى، يجد نفسه على مقربة من لحم البنادر، على أن يبث فى هذه الصورة ما يوحى بأنها أمنيات محروم، وليست

واقعة تاريخية تفرض على القارىء أن يجد لها تفسيرا اجتماعيا، وكأن تعليم البنات ليس أكثر من مفسدة الأخلاق، وهكذا كان استبعاد الدائرة الاجتماعية، وتضخيم علاقة أو تعلق هذه المدرسة بالفتى المراهق مع المبالغة فى الاشتهاء والتهالك من جانبها، أدى إلى نقص الشريحة المنتقاة، ومن ثم افتقاد الشعور بالصدق، حتى لو اعترف الكاتب - على نفسه - بأن هذا قد حدث له شخصيا!!

وفى قصة: «لم يعد أعمى» وهى موجة فى التيار الرومانسى الذى تشكله المجموعة، ولها سوابق تشبهها تركيبا وهدفا، كان باستطاعتها أن تبدو جديدة تماما، وبخاصة أن السارد قدمها بلسان رواية أنثى، هى أخت ذلك الشاب الذى فقد بصره، وصديقة تلك الفتاة التى وصفتها بأنها دميمة، ولكنها مثقفة نقية الروح. مرة أخرى يبدو «شيلوك» ماثلا فى المؤلف ، وقد استبدل بالسكين قلما يقتطع به رطلا من جسد الحياة، ولا مفر من أن يكون رطلا موافقا تماما للمطلوب، لا أكثر ولا أقل، ولادم يهدد الوجود الكلى. بل إن هذا الرطل المقتطع من جسد الحياة لايتخلى عن شرط زائد لم يقل به شكسبير، وهو أنه يكون ذا

شكل يملك إمكانات وملامح الأصل الذى اجتزىء منه، كما تملك الخلية صفات الكائن الذى عزلت عنه!! إن هذه الأخت الراوية شديدة الانشغال بأخيها، بموضوع زواجه بصفة خاصة، وكأن هذا الزواج قضية عمرها وصانع وجودها !! ولكن" لماذا؟ وبالطبع... إننى لا أفكر فى «تمطيط» الحكاية، ولا فى ازدواج الخط الصاعد من البداية إلى النهاية، وفى ظنّى أن الكشف عن شاغل هذه الأخت أو دوافعها لهذا الاهتمام كان يتحقق بإضافات قليلة جدا، ولكنها مثل توابل الطعام الجيد، فاتحة للشهية، مؤثرة فى الاستقبال، مستند لإعلان الجودة.

هذه أمور لايصح أن«نغالى» فى تقديرها، وما توقفنا عندها إلا لأنها قاسم مشترك (مستمر) فى الكتابات المبكرة، وكأنها مرحلة مص الأصابع الذى يزاوله الرضيع يخادع نفسه حتى يحصل على حليبه الطبيعي. وسيكون من التحامل على الكاتب - تحت ذريعة أنها الكتابة الأولى - أن يقل الاهتمام بالجوانب الإيجابية التى تحمل بذور الصحة والعافية بصدق تمثله للواقع الأدبى (العربى) فى مرحلة الخمسينيات، والجوانب الأكثر إيجابية (وإنسانية) التى سبق إليها، وأثبتت أحداث كانت

مضمرة أن الأدب المصرى فى حاجة إلى إبرازها والعناية بها.
لن أسمى هذا بالعناية بالآخر، فالقبطى فى مصر لايمكن أن يكون آخر» بالنسبة لى أنا المسلم، كما لا أقبل منه أن أكون آخر بالنسبة إليه، إننا شعب واحد، ووجود واحد، وثقافة واحدة، وقدأدى عبدالعال الحمامصى فريضة هذا الإيمان الوطنى بوسائل (جمالية وفكرية) ناضجة، تدل على وعى حقيقى، بأهمية الأدب، ووظيفته الثقافية الروحية فى تأكيد الشخصية القومية وتثبيت مقوماتها. القصة الأولى عنوانها: «فرحة الأجراس» وفاتحتها الأب هنرى بكل ما يحمل من حدب إنسانى ومسؤولية كنسية جليلة، وركنا الحكاية العاطفية فيها المراهقان: بطرس ومريم، تظللهما العفة والبراءة. وفى قصة: «بلا خطيئة» يقول الفتى وهويصطحب أشهر خاطئة فى المدينة إلى المأذون، متحديا نظرات الناس: «من كان فيهم بلا خطيئة..فليرجمنا!! وفى قصة : «اغفر لها يا أبى» - والعبارة ذات أصل إنجيلى، يقولها الشاب لأبيه إغراء بأن يتجاوز عن خطيئة الأم، حتى يحمل هذا الأب صخرى القلب أن يقول فى آخر أسطر القصة: انمحت القسوة البادية على سحنته، ثم نظر إليها بإمعان، كما ينظر القديس إلى

خاطىء يبغى الغفران، ثم قال: إن السماء تغفر... وأحرى بنا أن نقتدى بالسماء!»

ـ ٤ ـ

ليست هذه التلقائية الحرة التى يتعامل بها عبد العال الحمامصى مع التراث المصرى دون تصنيف مسبق إلا واحدة من الإيجابيات الموفقة التى سبق إليها، وإذا كانت القصة الأولى «فرحة الأجراس» قبطية فى شخصياتها ، ومعجمها اللفظى، فإنها عذرية فى مفاهيم الحب وسلوك الشخصيات، حتى أسلوب البوح، والهجرة بحثا عن السلوى، وكما كانت البداية مصرية ملونة بالأخضر، فإن القصة الختام مسيحية يتصارع فى ساحتها الأحمر والأسود (والتلوين لستاندال) أو الجندية والكهنوت، ولست على يقين من ملابسات قصة: رجل لفرنسا وبخاصة أنها تصور حالة منقضية(انتهت الحرب العالمية عام ١٩٤٥ ـ وتاريخ هذه القصة ١٩٥٥) من حيث الارتباط الزمانى والمكانى(فرنسا) أما الصراع (الرمزى) بين الواجب الدينى، والواجب الوطنى، حين يبدو تعارض بينهما، فإنه لايتوقف، ولايقتصر على دين، أو وطن أو جيل. لقد احتفظت القصة للقسم

الكنسى بقداسته، وللرهبنة بجلالها، وللوطن بعظمته وإعلاء حقوقه، وكانت هذه قسمة ماهرة ومشبعة لأهم بواعث الارتباط المقدر الذى يستحق به الإنسان أن يكون مواطنا ومتحضرا معا.

فى قصص المجموعة حرص واضح على أن تكون القصص إنسانية، بمعنى الانتصار للخير، وتبنى القيم، والبحث عن سلام النفس. وهذا الحرص «الإنسانى» يجد غذاءه أو حوافزه فى «الرومانسية» كما فى «فرحة الأجراس» و«العذراء الداعرة» ـ وهو عنوان مبنى على التناقض، الذى يستخرج الجوهرة من النفايات ، كما أن القصة مبنية على مصادفة. . كما قد تتعلق هذه الإنسانية بالهدف التعليمى، وقد كان صوت «الهادفية» عاليا بحضور محمد مندور ، وانتشار اليسار الثقافى على صفحات الصحف، وهذا فى القصص: «عش لأجلى» و«الأستاذة حكمت» ففى الأولى عدول عن الانتحار لإنقاذ طفل، وفى الأخرى فرح بتجنب الخطأ والانتصار على الرغبة، ولكن هذه الإنسانية تكون فى أوفق مواقعها حين تأتى مستهدية نمط الواقعية الاشتراكية، كما فى قصة «بلا خطيئة» وقصة «أمينة» وهذه الأخيرة تصدرها اقتباس من «جوركى» وحمل سياقها إشارات تضمينية ثقافية

تدل على تصاعد الاهتمام بالتثقيف الذاتى فى هذه المرحلة، وقد بدت بوادره فى قصة «عش لأجلى»

يمكننا أن نجد مؤشرات غير قليلة في هذه القصص القليلة ذاتها، وهذا طبيعى ومتوقع فى مرحلة التكوين، حيث تعد كل قصة تجربة جديدة قائمة بذاتها، تكتشف أسلوبها دون التزام سابق بطريقة اختارها الكاتب واطمأن إليها، فمثلا استخدم ضمير الغائب (العليم بكل شىء) فى «العذراء الداعرة» و«فرحة الأجراس» وفى رجل لفرنسا . فى حين استخدم المتكلم المشارك فى : «فى غمار الضياع» و«الأستاذة حكمت» و«بلا خطيئة» و«اغفر لها يا أبى» و«أمينة» واستخدم الراوى المشاهد - غير المشارك - فى القصة المونولوج «عش لأجلى». أما لغة الكتابة فإنها لغة عبد العال الحمامصي إلى اليوم، فيها سلاسة مغرية، وبساطة وكأنها لاتقول شيئا، فى حين أنها قالت كل شىء، ولكن البداية لابد أن تضع توقيعها التاريخى لتدل على وجودها، وهكذا أفلتت عبارات من مثل: ياإلهى - أغرب عن وجهى - بحق السماء اغفر لها ياأبى - تبالكم - لاغرو (مرتين فى نفس القصة) - دعنى أميط لك اللثام. مع هذا يقول عن بطرس إنه فتى مليح

الوجه» وفى قصة أمينة يقول عن نفسه: ارادتى معطوبة، فتجد التعبير الصعيدى يتنفس بطريقة مطمئنة وجمالية تكاد تكون فريدة.

لا أريد لهذه الصفحات المحدودة أن تبدو نوعا من المحاسبة، وكأنى «خوجة» يقرأ متصيدا وفى يده القلم الأحمر. ولهذا اختم بالاقتراب من أنضج قصص المجموعة - كما أراها - وهى قصة أمينة وليس هذا بسبب تجسيدها لأهم ملامح الكتابة القصصية عند الحمامصى فى المراحل التالية، أواقترابها منها، وإنما لأنها الأقرب إلى النمط السائد فى منتصف الخمسينيات فى الأدب المصرى قصة، ورواية، وشعرا، وحتى المسرح والسينما ، فهى من شجرة مسرحية «نرجس» ومسرحية «الناس اللى تحت» وقصة «قاع المدينة» وقصيدة الناس فى بلادى ورواية الأرض وغيرها من إنتاج تلك المرحلة المؤسسة الرائعة. إن إخضاع هذه القصة القصيرة للتحليل الهادىء يكشف عن جماليات وتطلعات إنسانية مميزة، حتى ما يبدو للوهلة الأولى، أنه ملصق بالقصة لن يكون كذلك حين نقرؤها كأسطورة شعبية ، نتمثلها ، نهتدى بمراميها ، دون أن نقيسها - بكل دقة - بمعيار الصدق والكذب!!

إن افتتاحية أمينة تعيد إلينا ذكرى افتتاحيات الفصول فى الجزء الأول من الأيام لطه حسين، ليس فى إيقاع لغته المنغمة التى تستعصى على المجاراة، وإنما فى تمهيد موقع محدد، هو مكان أو ظاهرة ، أو قضية يبدأ منها تحريك المشهد ، كالحارة، أو الطرق الصوفية، أو النظام التعليمى والكتاتيب. الجملة الأولى: «الحياة فى صعيدنا» والمتكلم عبده، والمحورمولد أبو على. الحديث كله عن ثوابت مفتوحة على زمن مفتوح، أما عبده فإنه الآن فى موقع البراءة، بعد أن تنقل بين حالين متناقضين، وهذا مستفاد من قوله: كان هذا ما يدفعنى فى حداثتى، ولأنه فى طور حداثته = مراهقته، ولأنه من أبناء العائلات ، فقد أوجد لنفسه مكانا وراء كواليس التياترو، والكواليس هنا ذات دلالة سلوكية، فقد عرف أسرارالعلاقات ورأى نجوم التياترو دون ماكياج، ولم يكن عبده يستغل انتسابه لعائلة مهابة، لقد كسر النمط، فدخل القلوب، فلما استعاد نمطه، واجه الطرد والهوان المعلن. إن الختام الثقافى التعليمى الرومانسى، المركب فى إشراقة صوفية أشرنا إلى جذرها الروسى، كما ينبىء عن سطوة الذاكرة فى تلك المرحلة، يدل على درجة التوحد فى

الثقافة المصرية السائدة فى الفترة ذاتها ، وفى حالة عبد العال الحمامصى خاصة ستدل على أشواق الروح الكامنة فيه، تلك الأشواق التى تبرعمت بطرق شتى فى مجموعاته التالية.

فرحة الأجراس

كانت الريح تزأر كأنها عواء قطيع من الذئاب الجائعة والمطر ينهمر فى تدفق، فقد كانت إحدى ليالى الشتاء القارسة. وعلى الشوارع يطبق سكون عميق لاتتخلله إلا خطوات عائد من رواد الحانات يتدثر بمعطف ثقيل. .. ومع ذلك هرع الأب هنرى لزيارة مريض يحتضر وتأبى روحه أن تنطلق إلى بارئها قبل أن يدلى صاحبها باعترافه الأخير..

وبينما الأب عائدا يخب فى ردائه الكهنوتى الفضفاض، وينتفض من الصقيع استرعت نظره خرقة ملقاة فوق إفريز الشارع... وبدافع غامض وجد نفسه ينحنى ثم يلتقطها... وكان بها وليد لاشك قذفته الخطيئة إلى دنيا البشر... وللتواستولى عليه شعور مزدوج من الرثاء والفرحة... الرثاء للإنسانية العاقة التى لا تنى تقترف الخطيئة منذ بدء الخليقة.. والفرحة لأنه كان يخال أن رسالته الدينية ـ بأعبائها ومتاعبها ـ غير كفيلة وحدها

بأن تنيله رضاء السماء..لذلك قر عزمه أن يتبنى هذا الوليد ، ناهيك بأن فى هذا ما يشبع غريزة الأبوة فيه وقد ضننت عليه الأقدار بنسل تقربه عينه.

وأخذ الأب يستعرض أسماء القديسين والأبرار ليختار له اسما، وأخيرا وجد أن بطرس أنسب الأسماء له، وآلى على نفسه أن يكون له خير أب. فما كاد يجتاز طور الرضاعة حتى احتكر له جل فراغه، وكان منظرا مألوفا لرواد الكنيسة أن يشاهدوا الأب محتضنا ربيبه يغمره بقبلات يفرز فيها عواطف الأب ثم يهدهده ويناجيه ويداعبه ويناغيه فيفتر ثغر الطفل عن بسمة ملائكية حبيبة.

وترعرع الوليد فى كنف راعيه راضيا بحياته قانعا بعالمه المحدود الذى لا يتعدى نطاق الكنيسة ، فهو إما مع الأب يحمل مبخرته والكتاب المقدس، أو بداخل الكنيسة ينفض الغبار عن الأيقونات ويمسح التراب عن المذبح .. وكم شعر بغبطة فارهة عندما أناط به الأب مهمة قرع الناقوس.

وقد لاحظ الأب انطواءه وعزوفه عن مخالطة الغلمان من أترابه فأغراه بالإندماج بينهم، فوجد فى ذلك متعة لا تقل عن

متعة استغراقه فى تصفح الإنجيل وترديد الترانيم.. ولكن بمرور الأيام عرفت الهواجس طريقها إلى فكره ، وزحفت الأحزان حتى اخترمت قلبه فقد تناهت إليه همسات تدور حول نسبه المجهول!

كيف يتصور أنه مجرد ربيب لهذا الراعى الكريم؟ وأضناه الأرق وأمضه الكبت فلم يجد بدا من أن يفضى بهمومه إلى الأب. ونظر إليه الأب نظرة حافلة بالرثاء والإشفاق والحنان الخالص وأخذ يتفرس فيه برهة قبل أن يتفوه بالكلمة التى ربما تدمره... وجاش بنفسه انفعال عنيف متضارب... ماذا يفعل؟ وليس بوسعه أن يكذب وهو من خدام الكنيسة ورجالها المخلصين؟ ولكن أليس للكذب ما يبرره إذا كان الثمن سعادة إنسان لم تعجم بعد عوده الخطوب ولم يصمد للتجارب..؟

ولكن رغم كل شىء لايستطيع أن يضلله... احتضن الغلام إليه وطبع على جبينه قبلة حانية وقد خضلت الدموع لحيته الكثة.

- لا ضير ياولدى.. نحن جميعا أبناء الرب.

وفطن الغلام إلى ما يعنيه ، فنشعر بألف مدية تمزق قلبه وألف مطرقة من حديد تدك رأسه، وغامت الدنيا أمامه وبدت

ضبابا كثيفا لايخترقه شعاع... ولكنه تجلد وكظم ألمه وقال من
ين دموعه.

- أجل لاضير ياأبتاه لقد علمتنى حقا أن الرب أب الجميع.

ثم انفلت من بين ذراعيه ولاذ بتمثال العذراء يبلل قاعدته بالدموع.لماذا قدر له وحده أن يكون بدون أب يعرفه من دون الناس أجمعين؟ كان هذا ما يعتمل بنفسه عندما شاهد الأب قادما نحوه.

- أيغير هذا من نظرتك إلى يابطرس؟

- لست أعرف لى أبا سواك.

قالها وانحنى يلثم كفه فمسح الأب رأسه فى حنان.

وعاش بعد ذلك محاولا أن يتخلص بالتفانى فى خدمة الكنيسة من الشعور بهذه الحقيقة...وعندما عادت من الريف «مريم» ابنة لحاد المقبرة المجاورة لم يشعر بالفراغ الذى اكتنف حياته.. فقد تآلفا لأول وهلة وهما معا دائما... يشرح لها الصور المنبثة فى الكتب ويحدثها عن قيامة المسيح..وهما يتسلقان أشجار المقبرة ويتباريان فى جنى ثمرات الجميز ويتنافسان فى القفز خلال الفناء الممتد..إن الرباط الذى يشدهما ببعض أقوى

من أن تنفصم عراه... رباط التآلف والإندماج والثقة.

ها قد أصبح بطرس فتى مليح الوجه فارع الطول عريض الأكتاف يتدفق شبابه بالحيوية وتنبى معارف وجهه عن رجولة مكبرة، وبقدر ما أسبغت عليه الطبيعة من فتوة وعافية بقدر ماوهبت مريم فتنة وأنوثة... وكان طبيعيا أن تنمو فى قلبه خميلة الحب فياحة الشذى وارفة الظلال... ولكن هجير الشك كان يلفحه فهو لا يعرف بالضبط شعورها نحوه..فهو لا يرى فى تصرفاتها إلا أنها تنظر إليه بمثابة أخ شقيق... ولا يعتريها أدنى خجل عندما ينزاح رداؤها عن ساقيها وهى تهم بإمساك الدلو لتملأه من بئر المقبرة... وكان يشعر بأنياب العذاب تنهش قلبه..! ولقد تغيرت مريم فى الأيام الأخيرة... زايلها مرحها وانطلاقها ولم يعد يحظى بمد اعباتها الشيقة ونوادرها الغريبة... وأصبحت تجلس بجواره ساهمة مكدودة تحدق فى الأفق وترقب الشمس فى انحدارها نحو المغيب ثم تتنهد فى حرقة... وفسر من جانبه هذا التغير بالحب، ورغم أنه لم يعرف إن كان هو فتاها ومطمحها أم سواه فإنه أبى أن يفاتحها بالأمر.. ولكنها ابتدرته ذات أصيل وهى ترنو إلى الأفق البعيد:

- أصدقنى يابطرس هل الحب خطيئة..؟

وعلا وجيب قلبه وارتبك.. هنا فى هذه اللحظة قد يجرع السم وقد يرتشف الترياق... والتقط أنفاسه المبهورة وأجاب:

- إن الله محبة والحب سر الحياة، وجوهر الوجود فكيف به يكون خطيئة..؟

وتطلع إليها فى لهفة ونظراته تشف عن التوسل الآمل . كانت صامتة ونظراتها مازالت مصوبة نحو الأفق كأنها ترصد ظاهرة غريبة فى السماء:

- ولكن من يكون المحظوظ الذى باركه الرب..؟

- بطرس... إن الحب - مهما تكن النظرة إليه - قوة قاهرة لا تملك القلوب حيالها دفعا وقد قاومت كثيرا ولكنى إنهرت عندما أفضى إلى بحبه فاعترفت له بحبى.. إنه إسحاق إبن أخت الأب..!

وغاص قلبه بين ضلوعه وخيمت على وجهه سحابة من الحزن ولكنه تماسك وتمالك روعه ولم يزد على أن قال:

- مبروك ليسعدكما الرب يامريم. إنه جدير بك كما أنت به جديرة ولكن الصدمة كانت أقوى من أعصابه فأجهش بالبكاء.

ولم تستطع فطنتها أن تكشف سر دموعه، وأنى لها أن تعرف وهى تنظر إليه كشقيق وتحسبه ينظر إليها كذلك. وتملكتها الحيرة لماذايبكى، وكان أحرى به أن يشاطرها هناء قلبها؟!

- وأنت متى أبارك لك يابطرس؟

- لن يحدث هذا أبدا..؟

- ولم؟

- لأنى وهبت قلبى لمن وهبت لغيرى قلبها.والعمر بعدها هباء.. ثم إنى لاأعرف لى أبا يبصم على وثيقة الزواج!

ولم تدرك حقيقة مايرمى إليه، وغمرتها الدهشة، ولكن شعورا خفيا جعلها تربط قوله هذا بما أفضت به إليه..

ولم تجد لحيرتها خلاصا غير أن تنهض فى صمت... ولحق بها:

- مريم... وداعا سأرحل بعد منتصف الليل، وإذا سأل الأب عنى قولى له: لن ينساك بطرس أبدا..

- بطرس لم أعد أفهمك... لم الرحيل وهنا درجت ورتعت..؟

- لم يعد لى مكان هنا..!

- وأين أزمعت أن تلقى عصا الترحال... بعدما تهجر أحباءك..؟

- أرض الرب واسعة... وقبل أن أمضى دعينى أقول لك: أنت يارفيقة العمر من وهبتها القلب وكانت أمنية الروح:

وانتفض كيانها وكادت تخور ولكن سماعها لنداء أمها أمدها بمقاومة الإغماء وهرعت إليها واجفة الخُطو.

كانت ليلة عبقة الأنفاس من ليالى أبريل فهرع الأب إلى الحديقة يستروح نسمات الربيع وبينما هويسير بخطوات وئيدة متمهلة تناهى إليه وقع خطوات قريبة، فأرهف السمع... وعلى ضوء القمر شاهد بطرس يتجه صوب الباب وبيده حقيبة... وخامرته الدهشة وكاد يهم بمناداته، ولكنه أجفل فقد شاهد مريم تبرز من خلف شجرة المانجو وتتصدى لبطرس.

- بطرس .. لقد أدركت كل شىء وليس ثمة داع لأن ترحل... أنا لك... وأنت لى وليس بوسع أحدنا أن يعيش بدون الآخر..

- أهو الرثاء يامريم؟

- لا يابطرس إنه الحب.. الحب الذى كان هاجعا تحت أعشاب الألفة والتفاهم العشرة... كان حبى لك غافيا، وهاقد

تفجر كما يتفجر الماء من ينبوع كانت تغطيه طبقات التراب.
وأدرك الأب كل شيء وتسلل بهدوء نحو الناقوس وخطت مريم وخطا بطرس ثم التقيا في عناق.. وتناهت إليهما قرعات الناقوس جذلة طروبة.. كان الأب هو الذي يقرعه... كأنما ليزف للملأ بشرى اندماج قلبين.

* نشرت بمجلة قصتي عدد نوفمبر ١٩٥٤

فى غمار الضياع

لم أكن أعرف لنفسى وجهة معينة .. كل ما أعرفه أنى ضائع كيهودى حاقت به لعنة الجنس .. وفى أعماقى تدور معركة .. واهاً لى من إنسان ضعيف .. خائر، متردد .. عمرى ما لبثت على رأى أزمعته .. عزيمتى ضائعة، إرادتى معطوبة .. ولست أدرى هل استوطن هذا الداء نفسى متمخضاً عن جراثيم الوراثة التى حبتنى بأمراض أخرى منها ضعف البنية والإملاق والضياع فى سفح الكيان الإجتماعى ؟

أم تولد من جراء ظروف حياتى المعقدة المرتبكة..؟ حياة ..! تبالها من حياة !

من شهر مضى أزمعت أن أقلع عن السرقة مهما جعت ومهما تشردت.

أريد أن أعيش فى سلام .. مع نفسى ومع الناس، لم أعد أحتمل الانفعالات الجامحة المتضاربة التى تعقب كل حادثة ..

.. فى كل مرة أقدمت فيها على هذه الفعلة المشينة يدهمنى شعور بالجرأة يشوبه خوف مبهم غامض .. تبدده الرغبة الملحة فى أن تكون فى يدى نقود أشاهد بها أفلام نجمتى الساحرة خفيفة الدم «شادية» وأتمكن من قراءة الكتب التى أعشقها.

القراءة هوايتى العريقة الاثيرة التى تنتشلنى من واقعى الشاذ الموغل فى التفاهة .. إلى عوالم أخرى مجهولة مبهمة .. ولكن .. عقب الحادثة يطاردنى قلق جائر وخوف مستعر من أعداء مجهولين، أخالهم يتربصون للايقاع بى. ورغم أنى لم أضبط حتى الآن، ولكن يخيل لى أن الناس يعرفون سرى .. فى نظراتهم شك وفى لهجتهم التواء وتنويه.

لابد أن أقع ذات يوم وتصفى العدالة حسابها معى .. ويا له من حساب !

والغريب هنا أنه رغم استفحالى فى هذه «الحرفة» لم أستطع أبداً أن أتخلص من الشعور بغربتى عن هذا الجو الذى انغمست فيه .. أنا لا أكره الناس، ولا أحقد على المجتمع رغم أنه أقصانى ونبذتى، ولم يهيىء لى مكاناً منه لأشعر بوضعى كواحد من المجموعة كفرد يتكون منه البناء المشترك .. كإنسان

.. ينتسب إلى السلالة .. بل اعتبرني من النفاية المستباحة الضائعة ومع ذلك لم أحقد عليه ..! فلماذا تطفو هذه الرغوة فوق سطح نفسي الاصيلة .. أهي الحاجة والعوز ؟..

أم عقدة نفسية مستحكمة تسوقني قسراً مسلوب الارادة..!؟

يا إلهي كم هي نفس الانسان معقدة شائكة تعج بالسراديب المعتمة، والاغوار السحيقة، والدهاليز المظلمة.

مضى أسبوع وأنا في صراع مع نفسي، صراع تدور رحاه بين هذه النزعة الوبيلة، وبين الجوانب النيرة في طبيعة وجودي وفطرتي .. ولكن .. في النهاية كعادتي دائماً لم أستطع الصمود.

انهرت. سأفعلها .. أمي مريضة ينشب السل أظافره في صدرها الهش، وتسعل سعالا يمتزج بحشرجة فظيعة، ويخرج بالدم ويضفي على سحنتها الفميئة طابعاً منفراً أشبه بسحنة كلب شموس بصقت عليه هرة مشاكسة ..

وسعالها يبعث في أوصالي رعدة جبارة، وهؤلاء الاغبياء .. الناس يقولون لابد من استدعاء طبيب .. واستدنت أجر ملاك الرحمة من حسنين البقال وبعد أن انتهى الطبيب من الكشف

على صدرها، أشار بمجموعة من الأدوية، لن أفى بثمنها ولو بعت عمرى.

إذن لا مناص من معاودة السرقة، لابد أن أسرق.. وأسير أستعرض المارة والمحلات والباعة.. ومرت بى عجوز ضامرة بيدها «قفّة» متسخة بها آثار الدقيق، وباليد اليسرى ورقة من فئة الخمسين قرشاً .

وعنت لى فكرة .. كدت أختطفها ولكنى قمعت رغبتى فى اللحظة الاخيرة، ومن يدرى ربما تكون قد استدانتها من أجل القوت، أنها نفاية مثلى .. وتابعت سيرى، ثم عرجت على محل بائع قماش، بعد ما دفعت ثنية الجاكتة إلى أعلى حتى أتمكن من إخفاء ما تمتد إليه يدى فى غفلة من البائع .. كثيراً ما تجحت هذه الطريقة رغم بساطتها ولم يفطن إليها أحد .!

أستغل استغراق البائع فى المساومة، ثم أخفى ما طلبت عرضه على، وأتسلل إلى الخارج برشاقة وجلة متوجسة.

ثم أعدو بكل قواى .. حياتى كلها فرار وسألت البائع :

– عندك قماش نهضة .؟

– عايز كام متر ؟

- ورينى الألوان قبله ..

وأنزل من فوق الرفوف أثواباً كثيرة متفاوتة اللون، ولبثت أستعرضها متصنعاً التمييز بينها، ولكنى فى الحقيقة أحاول كسب الوقت لتواتينى فرصة ينشغل بها عنى ..

وخشيت أن يطول وقوفى فيخالجه شك فى نيتى، فقلت :

- ما فيش الوان غير كده ؟

ورد الرجل بسخرية :

- لا

واستدرت إلى الخارج، وخيل.

إلى أنى سمعت تمتمة بين البائع ومساعده

«حرامى .. باين عليه»

ودخلت حانوت بقالة لأجرب الورقة الثانية - وما أكثر أوراقى - أطلب علبتى سجاير من النوع الفخم، وعندما يناولى البائع ما طلبت أتشاغل بإخراج النقود من الجيب الداخلى، ثم أستغل إنشغاله بزبائن أخر .. ثم أعدو بكل قواى .. إما إذا افتقدت الفرصة فأزعم أن النقود فقدت منى، وأتصنع انفعالات من ضاعت نقوده وأحاول أن أجعل لهجتى تبدو طبيعية ملائمة لا

افتعال فيها .. ولكن هذه المرة واتت فرصة أفضل .. فقد امتدت يدى فى غمرة الزحام وسحبت صندوقاً كبيراً يحوى خمسمائة سيجارة «هوليود» ؟

وأخذت أعدو بكل جهدى، وأحسست بدوار ورغبة فى الغثيان من فرط الجرى. وما أن وصلت مكانا نائياً حتى توقفت ألهث من الانهاك وتقيأت... واتكأت على جدار والعرق يتصبب من جبينى كبرميل زيت تخترمة الثقوب فى لظى الشمس. وعاودت المشى.. ولكن ببطء وقلبى ينبض كجهاز التاكسى الواقف فى الانتظار .

يا إلهى.. لماذا يحملق الناس فى بهذه الصورة؟ ماذا يروعهم منى؟ أهم يعرفون جريمتى؟ كل العون تحدجنى بنظراتها التى أطالع فيها الشك والاتهام.. أنا خائف مذعور أرتجف كجرذ تحيط به حلقة من القطط.. أريد ألا أرى الناس، أو حتى أفقد الشعور بالوجود كله.. أن أتلاشى .

ووصلت شارع البحر، فرأيت شلة آتية من بعيد.. توهمت أنها تتكلم عن الحادثة.. كل الناس يتربصون لى .

– هم حسنين أنت بتاخذ صندوق السجاير اللى فيه خمسمائة سيجارة بكام ؟

– ليه.؟ بـ ١٢٠ قرش

– طيب تاخد واحد وأفوت لك شلن عن الثمن ده ؟

وارتسم الشك على محياه، وماعتم أن قال :

– أنت جبته منين .

تلعثمت وارتبكت ولمحت نظراته الملتمعة وراء أهدابه مفعمة بالاتهام. ومرت لحظة والنظرات مازالت مسلطة على، وكدت أنهار، ولكنى تماسكت وقلت :

– أصلى أنا لى فلوس عند واحد بقال وما عندوش فلوس، وإنت عارف إنى عاوز فلوس بأى طريقة علشان الدوا .. فأستويت معاه على صندوق سجاير.

كانت حجة ضعيفة يبدو فيها الافتعال، ورمقنى بنظرة ضئيلة من زواية عينه، وتظاهر بتصديقى حتى يخصم دينه عندى.

ودلفت إلى حجرتى المعتمة فأشعلت فتيلة لمبة الجاز، وأخذ الضوء يتراقص على الجدران كأشباح راقصة .. وسقط النور الباهت على فراش أمى .. كان جسدها ساكناً تماماً.. لقد سبقنى الموت اليها !

ذهنى متبلد .. وعقلى متأكسد وشعورى يكاد يلتحم فى بعضه

من يدرى ربما يكون أحدهم لمحنى وأنا أسرق قبل أن أركض .. وربما كان يعرفنى .. ثم يبلغ البقال البوليس ويجىء الشهود .. ثم يأتى رجل من قبل البوليس ويسوقنى .. من يدرى؟!

أنا خائف .. خائف من القانون ومن الناس .. ومن نفسى .. ومن المصير الذى يلوح .. من النهاية .. من السجن والاسفلت والرقم .. ووصمة السوابق خائف من المجهول أريد أن أنام ويغفو إحساسى واستسلم للعدم !

---

* نشرت بمجلة قصتى عدد فبراير ١٩٥٥

الاستاذة حكمت

عندما أخبرنا الشيخ صميده ناظر مدرسة القرية أن الوزارة قررت تعيين فتاة لتقوم بالتدريس فى قريتنا بلغت بنا الدهشة منتهاها. فقد كان هذا بالنسبة لنا حدثاً شاذاً أصبح مثار التعليق وقوبل بالامتعاض.

وذات يوم فى مستهل الربيع قدمت الاستاذة .. فهرعت القرية بأسرها لتشاهد مبعوثة الوزارة .. كانت فتاة نحيفة ممشوقة حتى خيل إلى لو أن زوبعة من تلك الزوابع التى تتحفنا بها الطبيعة هبت لأطاحت بها كما تطيح بواهى القش ..!! ومع ذلك كانت ذات جاذبية غامضة تخطىء النظرة المباشرة تحديد معالمها، وفى نظراتها يتألق وميض مثير ملتهب .. ويبدو أنها توهمت أن احتشاد القرية مرجعه إلى الحفاوة فما كانت لتظن أن الفضول شيمة طبعت عليها قريتنا .. فحيت الجميع بإيماءة خفيفة قرنتها بابتسامة واهنة، ثم تبعت الفرّاش إلى الغرفة

المعدة لها فى دارنا، فقد كان طبيعياً أن يفرد لها والدى - وهو العمدة - حجرة فى منزله ..

وفى المساء دلفت إلى «الدوار» لأرى ماذا تكون تعليقات القرية عليها .. كان من رأى العمدة أنها فتاة متعجرفة متألهة ويبدو أنها تحتقرنا .. أما عباس أفندى حلاق الصحة فقد أمال طربوشه المعرق المتآكل إلى زاوية جبهته، ثم علق بما فحواه أنها ربيبة البندر فلا غرو إن تبدت لنا بهذا الوضع غير المألوف لنا .. وعلى «الدكة» التى تتصدر المكان كان الشيخ رشوان صاحب الطريقة الرفاعية يحرك حبات المسبحة حانق السحنة ترتعش لحيته فى انسجام مع تحركات أنامله وهو يلعن المدنية التى خولت للفتاة أن تسفر من وجهها بل تمعن فى الخلاعة فتزاول أعمال الرجال .. ثم أخذ يتمتم بدعواته المتشنجة كى ينقذ الله القرية من غواية ربيبة المدينة !

وعلق شيخ الخفر بقوله : «خلاص يا جماعة الدنيا انتهت.. صحيح عقب زمن..» ومن ركن منزوٍفى نهاية المكان سمعنا الشيخ محجوب مؤذن الزاوية يقول : «اللهم اخرجنا منها» على خير يبقى ربنا سابل عليه ستره..»

ولما كنت شاباً يعتبر نفسه متنوراً لأنى أحرز شهادة اتمام الدراسة الالزامية، وأقرأ جريدة الاهرام، وأنزح إلى البندر كل أسبوع، فقد وجدت أن من حقى أن أفصح عن رأيى فى هذا الصدد وكنت فى هذه الليلة بالذات أريد ثغرة أنفذ منها إلى إغاظة الشيخ رشوان انتقاماً لتسببه فى تعطيل سفرى إلى القاهرة مع أخى الموظف هناك، فقد حذر والدى من مغبة ذهابى بحجة «أنى طايش وطالع للدنيا جديد ومصر تفسد العابد» لذلك وجدت الفرصة سانحة لنرفزته، ناهيك بأن منظر لحيته وهو محنق كان يستهوينى فقلت : «والنبى انتم عمالين تخرفوا يا ناس، الدنيا اتنورت خلاص هى الدنيا دقون وبس..»

ولكزنى الشيخ رشوان بعكازه، ثم هب واقفاً كى يتمكن من توجيه ضرباته إلى فار تطمت رجله بجوال، ثم انكفأ على وجهه فى وضع جعل الجميع يستلقون إلى الوراء فى قهقهات متواليةا .. ثم نهض ينفض الغبار عن «زعبوطة» المتهدل الواسع ذو الاكمام العريضة .. وقد اهتزت لحيته فى حنق وهو يغمغم : «كمان مبقاش غير العيال تبعبع فى المنادر. عقب زمن»

وعاشت الاستاذة حكمت منزوية لا تختلط بنساء القرية إلا

لفضاء حاجة طارئة. وعندما يأتى الاصيل تخرج من حجرتها لتستروح النسمات فى خطوات وئيدة، ثم تجلس على حافة الترعة ساهمة تحدق فى الافق وترشق الماء بالحصى .. وعند عودتها تلاطف الصغار وتهش لهم فى دعابة ومرح، ثم تلوذ بغرفتها كراهية ..

وكثيراً ما تقت لأن أجاذبها الحديث فاتعمد أن أتصدى لها ..

ولكنها كانت تتجاهل وجودى وتشق طريقها بدون أن تلتفت نحوى .. فاغتاظ ويغمرنى شعور بأنها تفعل ذلك عمداً..! ولكن لماذا ..؟ هذا ما كان يحيرنى ويمضنى. كنت أراها وديعة على غير رأى الجميع فيها .. وكان انطواؤها يؤلمنى .. وتعمدها تجاهلى يمزقنى .. ولست أدرى لماذا كان قلبى يخفق فى عنف عندما أشاهدها ..!؟

وذات عصر لمت أطراف شجاعتى وتصديت لها .. كانت بيدها حقيبة جلدية متخمة بالدفاتر، وبيدها اليسرى مجلة على غلافها أنثى بلباس الشاطئ، وابتدرتها: «هاتى الشنطة أوصلها لك يا .. أبله..» ولفحتنى بنظرة ساخرة وأجابت : «كتر خيرك يا شاطر .. مهياش تقيلة قوى..»

وغاظتنى كلمة يا شاطر، ولكنى كظمت غيظى وتماديت فى الالحاح عليها، فتركتها لى وتقدمتنى ثم دلفت إلى حجرتها وأنا خلفها .. ثم أخذتها منى وألقت بها على المنضدة، وهممت بأن أستدير صوب الباب ولكنها استوقفتنى بقولها : «بدرى استنى لما أعمل لك شاى ..» قلت وأنا اتلكأ.

– لأ بلاش تعب ..

– على إيه التعب بس خليك شويه .. على فكره اسمك ايه يا شاطر ..؟

قلت وأنا أحاول أن أجعل لهجتى طبيعية لا يبدو فيها انفعال الغيظ.

– اسمى حسنى يا أبله ...

– برضه اسم راقى شوية .. تعرف يا حسنى دمك خفيف وباين عليك ظريف ..

وصعد الدم إلى وجهى، كعذراء تسمع كلمة غزل لأول مرة .. ونظرت إليها .. كانت تظراتها المشتعلة ذات الوميض مسلطة على وجهى ثم استطردت : «انت مش بتروح سينما يا سونة؟»

– لأ يا أبله عمرى ما رحت ..

– ليه يا حسنى مش عايز تشوف الدنيا ..؟

– بيقولوا أن النسوان بترقص عريانة و ..

ثم تلعثمت وارتبكت .. فاستحثتنى بقولها :

– وإيه كمان .. ؟

– كمان الشبان بيرقصوا معاهم

– وإيه يعنى دى مش حاجة غريبة أبداً ... شوف يا حسنى الدنيا دلوقت غير زمان ... على كل حال أنا نازلة البندر يوم الخميس الجاى وحاخدك معاى نروح سينما ....

واحتسيت الشاى فنهضت مستأذناً .. فشدت على يدى بحرارة وشعرت بأناملها الناعمة تضغط يدى وهى ترمقنى بنفس النظرة المشتعلة ذات الوميض وتقول :

– كل ما تكون فاضى تعال نقعد سوا ..

وخرجت تطن فى رأسى خواطر غريبة وتنتهبنى مشاعر متضاربة ..

واعترضت أمى على ذهابى إلى السينما معها .. ولكن أبى عارضها فسكتت على مضض وهى تقول فى سخط :

«سينما وهباب عايز تتلف الواد..»

وطوال فترة العرض كانت الاستاذة ملتصقة بى وأنفاسها الساخنة تلفح وجهى فأشعر بخدر لذيذ ينساب فى أوصالى، ويحلق بى فى آفاق نشوانه ماتعة .. وعندما كان البطل يهم بتقبيل محبوبته كان صدرها يناجى كتفى فى توسل فأزحف فى خجل.. ولكنها تنتهز فرصة شرحها للمناظر وتلتصق بى من جديد ..!!

وفى عودتنا سرنا على الضوء الخابى الذى يرسله القمر الناعس كأنما هو غارق فى حلم .. وكانت بين الفينة تنظر إلى القمر فى ذهول ثم تزفر فى التياع .. وعندما حاذينا كلباً كان قابعاً وسط الطريق انتفض يعوى، فلاذت بصدرى وشعرت بها تضغطنى فى تعمد ... !

وفى تلك الليلة لم يراود النوم أجفانى.. سهدتنى انفعالات جامحة لم يسبق لى أن شعرت بها .. وتيقنت أنه الحب .. الحب يغزو قلب مراهق تطبعه تقاليد الريف .

أحببتها فى جنون ولم أعد أفارقها .. وآليت على نفسى أن يظل هذا الحب حبيس قلبى لا أبوح به إلا لضميرى.. أحببت فيها فتنتها ووداعتها ونحول جسدها وخصوبة صدرها والعوالم

الفسيحة التى جعلت عقلى المغلق يطل عليها .. شىء واحد كنت أرتاع منه وأبغضه فيها .. نظراتها الظامئة ذات النداء المجهول... وكنت أنفق معها الهزيع الأول من الليل .. فتحدثنى عن حياتها فى المدينة .. وتطالع لى القصص العاطفية بلهجتها المنغومة ذات الايقاع الموسيقى وذراعها تدغدغ كتفى وبين اللحظة واللحظة يزفر صدرها تنهيدة حارقة .. شاكية. كان الحرمان يمضنى ووسائلها المشجعة تغرينى .. ولكنى أقمع رغبتى .. كان يخيل إلى أنها من طراز رفيع خلق ليقدس .. لا لينتهك ..!

وكثيراً ما لامتنى أمى من جراء ملازمتى لها. ولكنى أبداً لم أكف عن مداومة جلوسى معها ... وذات ليلة دهم النهر فى فيضانه قريتنا، واكتسحت المياه الحواجز التى أقمناها، وسمعت القرية صرخات الخفراء تهيب بها أن تستيقظ .. وكان أول من فكرت فيه هى .. وهرولت ملتاثا نحو غرفتها .. كانت مستغرقة فى النعاس مستلقية على ظهرها بدون غطاء، وصدرها الارعن قد تمرد على منامتها فبرز إلى الخارج وأمسكت بها أهزها فى عنف :

- أبله حكمت .. ابله حكمت . قومى البلد غرقت .

وهبت مذعورة، فأنهيت إليها الخبر ثم جذبتها وركضت معها فى خبل والظلام سائد.

والصرخات تتوالى .. ونباح الكلاب وخوار البقر ونهيق الحمير .. ومأمأة المواشى، كل ذلك يؤلف لحناً متداخلا مرتبكاً مشوشاً. حتى وصلنا الجسر العمومى فتوقفنا وهى تلهث .. كان الظلام حالكاً لا يبرق فيه سوى صدرها البادى من فتحة المنامة..

وجلسنا على الارض وكان الواجب يحتم على أن ادعها ريثما أنقذ مواشينا ومتاعنا، ولكن ضميرى لم يسول لى أن أدعها وحدها .. وطال الصمت .. وفجأة جذبتنى إليها وأوشك فمها أن ينزلق نحو فمى، ولكنى قاومت حتى تخلصت .. أى جنون هذا..؟ الرغبة فيها تكوينى ومع ذلك أرفض بذلها..؟ وسمعتها تتمتم فى سخط وترمينى بالجبن .. وتحاشيت بعدها أن أريها وجهى ولكنها بحثت عنى ودعتنى إليها .. وابتدرتنى :

- حسنى .. ألا تعلم كم أحبك ؟

قالتها ونوائب شعرها متهدلة.. وهى تحدق فى بنظرات

صـامـده لا تطرف وملء عيـونهـا تهـافت .. أشـبـه بنظرات هرة جـائعـة إلى سـيـد جـشع .. لحظة يـحلم بهـا ذئب.. ولم يكن لى مخلب..

وشعرت بالألم يعتصر قلبى وأجبت :

– وأنت حب عمرى ..

قالت فى سخرية :

– كيف تفسر جمودك هذا مع حب تزعمه ..؟

– لقد أحببتك .. ولكن .. على طريقتنا ...!

– على طريقة الربابة والمواويل !

– حسبتك مثل خضرة والاخريات، ولكن أحسبنى مفرط البلاهة .

وهرولت إلى الخارج لأمسح الدموع .

وجاءتنى بعد أيام تنهى إلى خبر إزماعها السفر إلى بلدتها لقضاء إجازتها وسألتنى هل أمانع أن أقضى ساعة معها .. وشعرت بتعاسة لا حد لها.. وإن كنت لم أنبس بكلمة، ورافقتها صامتاً إلى حجرتها .. وأخذت تقرأ لى فى قصة قصيرة بمجلة أسبوعية، وعندما وصلت إلى مشهد تقع فيه قبلة .. سألتنى :

«تعرف بعدما وجدى باس سوسو ها يعملوا إيه ؟

– مش عارف

وارتسم الغيظ على محياها وقالت فى حنق :

– انت ها تفضل لامتى مش عارف ؟

ثم تلاشت حدة صوتها وابتسمت فى إغراء وهى تقول :

– حسنى .. عمرك ما بوست واحدة ؟

وأجبت بالنفى وأنا أفطن إلى ما وراء محاولاتها ..

– طيب أنا ها أعلمك البوسة وأجفلت ولكنها أمسكت بيدى وبحركة سريعة انقض ثغرها على فمى، وحاولت التملص بلا جدوى .. كانت الرغبة المتهورة ملء كيانها .. وكأنما القبلة الخاطفة قد أججت النار فى جسدها .. وهى تطوقنى فى عنف وأنا أحاول الفكاك بكل جهدى ومقاومتى تزيدها رغبة .. كانت أشبه بنمرة .. ثائرة .. جائعة .. مستميتة

– لا يا أبله .. عيب يا أبله .. خلاص ها أصرخ.

وخارت قواها من فرط ما بذلته وأرادت أن تنتقم لأنوثتها فأخذت تزأر فى وجهى :

– أخرج .. أخرج .. أغرب عن وجهى .. أنت طفل .. طفل ..

أتسمعنى أنت طفل .. اذهب لأمك. وذهبت .. ولكن لأبكى

وفى الصباح حزمت الاستاذة أمتعتها وسافرت، ولم أخف لو داعها، وعندما كان القطار ينهب بها الطريق كنت أقبل صورتها وأنا أسح الدموع وصرخاتها تهدر فى أذنى: طفل .. طفل.

على أى حال لا يهمنى .. لقد كنت إنساناً .

* نشرت بمجلة قتصى عدد ابريل ١٩٥٥

عش لأجلى

احياناً تدهم الإنسان - أى انسان - فكرة متهورة مخبولة فيذعن لها بغير وعى فى استسلام نزق تشوبه إرادة معطوبة .. وهل هناك فكرة أكثر توغلا فى التهور من إرادة انسان يزمع الانتحار ويصر عليه .. وصاحبنا لا يدرى لماذا قرر أن ينهى وجوده هذه الليلة بالذات .. كل ما يدريه أن لا مناص من ذلك. ولو تصدى له أحد بالإعتراض لبرر مسلكه بأن الحياة عديمة الجدوى، وأنه لا يجد فيها ما يستحق أن يعيش لأجله .. إنها وجهة نظره وهو يؤمن بها .. وفر عليك عناء إقناعه فهو عنيد .. أنا أعرفه وما هو بمقلع عن عزمه ..

ركز اهتمامك فى النهاية .. وتعال نقتفى أثره .. هاك هو يدب وئيد الخطو ساهم الفكر أشبه بشقى يولى وجهه شطر المقصلة .. ها هى الخواطر تتزاحم فى مخيلته وتلتحم كخيوط شباك تخبلت .. طبعاً سيحاول تبرير هذه النية أمام نوازع

البقاء فيه إلى متى يلبث فى الظلام لا يلمح النور. صقيع اليأس يشل قلبه، دفء الأمل لا يسرى أبداً فى روحه، وقد فقد الشعور إلا بهموم ينوء بها كاهله.. ها هو يسير .. ذكريات شاحبة تتراءى له .. وأشباح من ماض أغبر تطارده .. حياته خواء .. ووجوده لن يهم أحداً .. فلماذا يعيش ؟ سؤال طالما أرقه وألح عليه .. لم يعد ثمة أمل يعيش من أجل تحقيقه لقد دمر اليأس حياته .. وأباد طموحه .. وليس يدرى ما الذى اقترفه فى حق القدر حتى يحتكر له كل ما فى جعبته من تنكيل .. أبداً .. لا يخترق ظلامه شعاع من نور .. كل كل شىء لفه السواد .. ودمرته العواصف وأطاحت به الاعاصير .. فلماذا يعيش ..؟

أى قوة غامضة تلك التى تجذبه نحو المصير .. قوة غالبة لا يمكنه دحرها ولا يتسنى له منازلتها .. لطالما ساقته فى الظلام مسلوب الارادة يجهل المصير.. فما أخلقه بالاحتقار والزراية لو ترك العنان لهذه القوة المتعسفة تتحكم فيه وتسوقه .. سينتحر لينهى سطوتها ويفر من لعنتها .. فما معنى أن يعيش خاضعاً لقوة ساحقه مبهمة لا يدرك كنهها ولا يعرف مأتاها .. كل ما يعرفه أنها قوة أزلية تعمل دائماً من وراء ستار صفيق تدبر

خلف حجب سميكة .. قوة عملاقة لا يلمسها ويشعر بها .. ولكن ها هو قد تمرد .. أبداً لن يعيش دمية تافهة تحركها لا مندوحة لها رضيت أم سئمت .. لا مناص قاومت أو استسلمت .. فى النهاية لابد من الخنوع .. ها قد شعر بالخواء، لم يعد يحس حتى بكينونته .. الوجود سخافة .. والبقاء مهزلة .. وصياح الديكة يتناهى إليه منغماً حافلا باغراء الامل .. ولكنه لا يشعر إلا بأنه فى طريقه إلى النهاية ها قد وصل إلى الشاطىء وفى أعماقه تمور مشاعر تطفو فوقها الرغبة فى الموت .. السكون سائد والمياه راكدة فى استغراق كأنما النيل فى غيبوبة .. لاشىء إلا نقيق الضفادع كأنغام مرتبكة تعزفها أنامل فنان منكود، والقمر يرسل ضوءه الشاعرى فيضفى على الكون الهاجع وشياً خلاباً الطبيعة تهيب به أن يعيش ولكنه لا يشعر بشىء سوى أنه يريد أن يموت أن يهرب .. وشعر بالتأفف من مدلول كلمة الهروب فهو ليس جباناً وإنما هو ثائر .. يريد أن يموت صيحة تصرخ فى أعماقه .. تزمجر فى كيانه .. تهدر فى أرجاء نفسه.

ما الذى يرغمه على الحياة ما الذى أخذه منها ؟!

طفولته آه كم تمزقه الذكرى .. لقد افتقد الحنان فى هذا الطور من حياته .. وكان شعوره بأنه وحده يمضه ويعذبه.. وليس بوسعه سوى أن يبكى .. ترى لماذا كانت أمه نائية عنه وهو فلذة الكبد منها .. أبداً لم تغدق عليه من طاقة الامومة فيها..

لماذا ..؟ لا يدرى سوى أن الدموع حينئذ كانت تقفز إلى مآقيه ساخنة كاوية.. وعندما يناديها بيا أمى يشعر بغصة المرارة فى حلقه .. وكلما شاهد اما تسكب رحيق الحب لوليدها من قبلاتها تنهمر دموعه ملتاعة ويمضغ عذابه فى صمت ..

وفى صباه أرغموه على ارتياد طريق لا يلائم ميوله وكانت النتيجة انه هرب .. هرب إلى الفلاسفة وقادة الفكر والفن، عاش معهم وتأثر بهم واجب بعضهم وكره الآخرين ..

رطاب له هذا العالم الجديد الزاخر بافاق فسيحة وأجواء عاطرة .. وقد أمدّته القراءة بفكرة عن الصداقة والحب والمثل والحياة كما يجب أن تكون.. حاول أن يجدها فى واقعه فأخفق وكره هذا الواقع وتنمر عليه .. وأحس بأنه غريب .. وأشقته معرفته لأنها طورت آلامه من ذاتية محدودة .. إلى انسانية

عارمة .. هذه هى الحياة التافهة المبتذلة التى يحياها القطيع البشرى تستدر وأله وسخطه .. وقد حاول أن يوائم بين حياة الناس وحياته فأخفق بين نظرتهم إلى الحياة ونظرته ففشل .. خلف وداعتهم المتكلفة تكمن ضراوة الذئاب .. أهذه حياة ..؟ سحقاً لها هو لا يريدها .. كم كان يود أن يعيش .. من أجل القيم التائهة والمثل المنتهكة .. والبشرية المستباحة. إنه لم يعش أبداً لوجوده .. لم يمنحه الحب أحد، ومع ذلك أفعم قلبه بحب الجميع .. حتى الذين سخروا بمثاليته الشاذة واعتبروها ضرباً من الجنون!

حتى الذين يتوهمون أنه أبله ومغفل وساذج تنطلى عليه أساليبهم الملتوية ولا يمكن أن يفطن لنواياهم له .. أغبياء .. هم لا يفهمونه .. فهو يعرفهم، فقط يتجاهل .. ويبدو فى صورة المغفل ليتسنى له الخوض فى أعماق النماذج البشرية التى يحتك بها ..!

وهم يعتقدون أنهم يستغلونه بدون أن يشعر .. مساكين .. هو يعرف ذلك .. ويتألم ويتمزق .. ولكنه ليشبع نوازع الانسانية فيه .. فهو يشعر بسعادة فارهة عندما يبذل حتى ولو للشيطان..!

عندما يمنح يغمره الشعور بأنه انسان حتى ولو توهموه مخدوعاً.

لقد عاش دائماً وحده .. لم يجد قلباً يعانق قلبه .. ولا روحاً تتجاوب مع روحه .. فلماذا يعيش ..؟

في أعماقه ثورة وفي قلبه سخط .. وفي ضميره التصميم .. سينتحر .. آه ما أسهل أن يموت الانسان وما أصعب أن يوجد .. ولكن من قال أن عملية البناء في بساطة عملية الهدم ..! قفزة واحدة .. وبعدها يغيبه النهر في جوفه الفاغر .. وينتهي كل شيء ..

وفجأة تناهى إليه صراخ فجائي ضئيل ينحدر من مكان لاشك قريب .. ولم يحفل به بادئ الأمر ولكن الصرخات توالت في استجناء لهيف .. وأحس بدافع غامض يسوقه قسراً تجاه الصوت .. أوه إنها حياة حياة وليدة .. قذفت بها الانانية إلى دنيا لا يمكن أن ترحم أمثاله فاللعنة تطاردهم بدون ماجريرة وخيل إليه إن صرخاته توسلات ترتعد من المجهول .. وتفرس فيه .. كم هو جميل .. ووديع ..

وضمه إلى صدره في حنان وانحدرت من مآقيه دموع .. ثم اتجه بصره نحو السماء .. فخالها تبتسم وانبعثت من ذهنه فكرة .. سيعيش .. لأن صرخات الصغير تهيب به.. عش لأجلي...!

---

* نشرت بمجلة قصتي عدد مايو ١٩٥٥

بلا خطيئة

كانت المدينة تتحدث شامتة عن مصرع «حسن الدرنكى» عندما عدت إليها رغم مرور شهر على مصرعه. ولا غرو فقد جعل المدينة وضواحيها مسرحاً لجرائم بشعة لم يكن لها بها سابق عهد ... لذلك كان الناس لا يذكرونه إلا بوابل من اللعنات .. حتى إمام المسّجد أبى أن يصلى على جثمانه، زاعماً أنه إنسان حاقت به لعنة السماءِ فلا يجب أن تدركه رحمة البشر.

لذلك اعترتنى الدهشة عندما رجتنى أمى فى إلحاح أن أضع باقة من الازهار فوق قبره ..!

ورغم أنى تعودت أن ألبىّ رغباتها بدون إيضاح إلا أنى هذه المرة خرقت القاعدة فسألتها ما يبرر هذا المسلك الشاذ، فأجابت فى إقتضاب : إنه طالما أسدى إليها من خدمات ليس من حقى أن أعرفها. وعلى ذلك أخذت طريقى إلى مدينة الموتى ..

وشعرت برهبة مبهمة وأنا أجوس خلال مسالكها المتربة

الموحشة .. واستغرقت أفكر .. إن هذا المجرم له العذر فى أن يكون مسلكه نحو الناس متسماً بالجفوة والارهاب.. فالبشر الذين يضنون بالغفران حتى لميت أصبح فى ذمة السماء سيرغمون الإنسان على أن يكون شيطانا..

وأزحت عن فكرى هذه الخواطر وانساق تفكيرى إلى خواطر أخرى.. ما بال مدينة الموتى قد اتسعت كثيراً وبدرجة غريبة عن آخر مرة زرتها فيها منذ عشر سنوات عندما أهلنا التراب على جثمان أبى ..! فالارض الجرداء المترامية التى كانت تحف بالمقابر قد زحف الموتى إليها .. وليس من المستبعد إن ظل الحال هكذا أن ينافسنا الموتى فى أرضنا تلك التى ضاقت بالاحياء ... ويرق فى ذهنى خاطر.. لماذا لا يهتم علماء الاقتصاد بهذه الظاهرة ...؟

وغمرنى طوفان من الافكار لا أكاد أتخلص من فكرة حتى تدهمنى غيرها.. ثم انساق فكرى إلى الموت ذاته .. ذلك المارد الجبار الذى أختطف منى كل الذين أحببتهم فى هذه الدنيا .. إنى أمقت الموت بل أرتعد فرقاً كلما لاح لى شبحه الرهيب .. واستغربت كيف يكون عزرائيل ملاكاً وتسول له نفسه حصد

الارواح بمنجله المنهوم الشره المسعور .. لقد حدثتني جدتي عن الملائكة والفكرة الراسبة في ذهني أنها مخلوقات أثيرية مرهفة حنونة هي رمز الرحمة..! فلماذا يشذ عزائيل ويحمل في نفسه كل هذه الطاقة الهائلة من الكراهية العارمة نحو البشر...؟ إذن لست متحاملاً في كراهيتي له مادام هو يضمر الشر لجنسي ويحمل على إبادته.. ناهيك بأنه يتربص لي وسيدهمني ذات يوم .. وألمت بجسدي قشعريرة بادية انتفض لها كياني.. أجل من يدري ربما كان الآن في طريقه إلي ..!

ومررت في مسيري؛ ب«العم جمعة» حارس المقابر، وشعرت بالارتياح لوجود أحياء بجانبي .. كان منهمكاً في عمله المألوف الرتيب يوزع المياه على أشجار المقبرة .. وحياني بإيماءة من رأسه .. فهكذا عهدناه دائما صموتاً يندر أن يتكلم. ولعل مرد ذلك إلى طول عهده بالمقابر الخرساء كالعدم .. ووثبت نحوي طفلته الصغيرة ونزعت من الباقة التي بيدي زهرة بيضاء وخالستني النظر لترى وقع ذلك في نفسي .. ولما لم تر ما يدل على الامتعاض قالت : «لا يضير ميتك أن أنتزع واحدة منها».. وابتسمت لها ..

– عم جمعة .. فى أى ناحية يقوم مثوى حسن الدرنكى ..؟

– حسن الدرنكى ..!

رددها الرجل وقد بانت الدهشة على وجهه المتغضن الذى ترك الزمن فيه طابعه... وظل يحملق فى وكأنى «يمليخا» الراعى هب من كهفه. كانت نظراته المتسائلة تطالب بإيضاح ...

– إنها مجرد خدمة كلفتنى بها صديقة له، تختلف فكرتها عنه عن رأى الآخرين فيه .

– وهذه الورود إبتاعتها خصيصاً له ...؟ أجل

– نحن لا شأنا لنا بعواطف الآخرين ثم أنها تزعم أنه أسدى إليها خدمات!

وقادنى الكهل خلال المسالك المتعرجة حتى وصلنا إلى بقعة جرداء تتناثر فيها القبور الضئيلة.. وأشار إلى قبر تجلس بجواره إمرأة، واستدار عائدا .. وتقدمت بضع خطوات ثم تسمرت فى مكانى لا أريم .. فقد كانت القابعة «نجوى» حسناء المدينة وغانيتها. تلك الساحرة التى يلهث خلفها كل فتيان المدينة، ولكنها لا تمنح لياليها إلا للوجهاء من ثراة المدينة الذين بوسعهم أن يجذلوا لها العطاء..

لقد هبطت نجوى ذات يوم من مكان مجهول إلى مدينتنا فى مناسبة مولد الشيخ كمال الدين فقيرة معدمة لا تملك سوى جسد خصب ريان يزخر بأنوثة مسبية .. وجمال من نوع أخاذ لا يمكن أن يفلتك من قبضته بمجرد أن تراه .. ؟

وعرفت كيف تستغل أنوثتها - التى أضفت عليها الطبيعة الكثير - فى نصب حبائلها للإيقاع بثراة المدينة. وطالما اشتهيت نجوى ولبثت الليالى الطوال أرقاً أهفو لقبلة من ثغرها الارجوانى المكتنز كنت على إستعداد لأن أبذل نصف عمرى - أنا المراهق الذى يمضه الحرمان - مقابل ليلة واحدة من لياليها المترعة بالنشوة ... ولكنى لا أملك الثمن ثمن ليلة من لياليها ... وكم طالعت فى نظراتى الوالهة وميض الاشتهاء المكبوت المعتلج .. ولكنها لم تستجب أبدا لا بتهالى الضارع الصامت ..

كانت تحدجنى بنظرة ساخرة، ثم تحكم حبك ملاءتها حتى تسفر عن تقاطيع جسدها المتموج، وتخطر متهادية فى دلال .. رخو محرض .. متبذل .. يلهج بالنداء.

وهاقد واتت الفرصة لامتلاكها وإخضاع عنان جسدها لى .. إنها الآن لن تستطيع أن تقاوم .. وإن فعلت فى النهاية ستخور

.. وأحسست بالرغبة الكظيمة تلفح كيانى .. ولبثت واقفاً أفكر في طريقة إمتلاكها .. كانت هذه الفكرة المجنونة تستحوذ على .. فلم آبه بعظة الموت ولا رهبة القبور .. ورفرف في الجو عصفور مغرد فأخذت أتأمله وهو يحلق في الجو جذلا ثم هبط على أصيص غرس فيه نبات «الصبار» وعنت لى فكرة، والانسان ينزع أحيانا نحو تفاهات مهما كان شأن الفكرة المشغول بها، عن لى أن أمسك بالطائر لأهديه لصغيرة الحارس حتى أسعد بمرأى الفرحة تتضوع فوق محياها البرئ. واستدرت لأتسلل وأقتنص الطائر من خلفه .. ويبدو أنه فطن لمحاولتى إذ سرعان ما فرد جناحيه وحط على غصن شجرة جميز ضخمة وطفق يرمقنى فى إحتقار.

وتحول إهتمامى إلى الاخرى... لماذا جاءت هنا؟. ولماذا تقبع بجوار قبر المرحوم بالذات..؟؟ والآن هل انقض عليها، وأدع فمى يعب من عبير ثغرها.؟ إن المفاجأة وحدها هى الكفيلة باخضاعها.. ولكنى أكره الاغتصاب، وخصوصا فى المرأة. وقد عشت حياتى لا أستمرئ شيئاً نلته قسراً .. يجب أن تكون الرغبة مزدوجة وتشعر نجوى نجوى بنفس شعورى نحوها.

فالإمتلاك شيء والبذل مع التفاهم شيء آخر .. ولكنها عنيدة رعناء لا تجدى معها أساليب الغزل. إنها إمرأة مجربة. لافتاة مراهقة تستميلها كلمات مطرية لبقة ... على أى حال يجب أن أستعمل اللباقة.. آه إنها الفارق بين إنسان الغاب وإنسان الحضارة .. فالأول كان يحقق رغبته بالقوة الجثمانية أما الانسان العصرى فقد حبته التجربة الزمنية بسلاح من الاساليب المهذبة وإن كانت الغاية لا تختلف. كلاهما حيوان سادر فى بوهيميته .. عرف الاخير كيف يغلف غرائزه بنسيج ناعم حاكه مغزل التطور .

وفى خطوات رشيقة متناسقة سرت نحوها .. وحالما رأتنى ندت منها صيحة مكتومة لاتنم عن الخوف وإنما تفضح الدهشة .. كانت بقايا الدموع تتدحرج على خدها ...! ودهمتنى أسئلة كثيرة .. لماذا تبكى فوق قبر إنسان شيع جثمانه بلعنات الضحايا .. وأى صلة تربطها به ..؟؟ ثم أليس عجيبا أن تسح الدموع غانية رسالتها أن ترقص فوق أطلال البيوت التى تهدمها ...؟!

ونحيت الهجوم جانبا .. ثم وضعت باقة الازهار فى «قصرية

الصبار» وافترشت الارض قبالتها ..

كانت هناك عدة أسئلة تقفز من عينى كما تطل من عينيها ..

قالت :

- أكنت صديقه.؟ وأجبت :

- ألم أره قط.

- ألهذا الحد أنت رحيم ..؟

- لا يمكن أن أزعم هذا .. فقط خدمة كلفت بها.

- أيوجد من يذكره .. ؟!

- من جهتى كنت العنه وأنا فى طريقى إليه ....!

- تبالكم .. لقد جعلتم منه مجرما ..!

- نحن ..؟!

- أجل كلكم معشر البشر .. إنكم وحوش .. ذئاب أتسمعنى ؟ أنتم وحوش فى صورة راقية ..

- إسمعى .. ليس من حقك أنت بالذات أن تتفوهى بكلام مثل هذا .. أنت يا سفيرة الشيطان يا بائعة .. وقاطعنى : «يا بائعة الجسد .. أليس هذا ما كنت تريد قوله؟»

ونظرت إلى من خلف أهدابها فقلت :

– وهل تجنيت ؟

– أو تحتقرنى من أجل ذلك ..؟

– شىء طبيعى

– إذن لماذا تتهافتون على تهافت الكلاب الضالة على جيفة نتنة ..؟

أجب إن بريق الرغبة فى عينيك لم يخب .. تكلم يا من ليست فى حياتك خطيئة ...!

– ماأتيت إلى هنا لأسمع محاضرة.

فقط أسألك.. أكنت عشيقته ..؟

– وماذا يعنيك

– فى موقف مثل هذا لا يستطيع الانسان أن يكتم فضوله

– كنت خطيبته. أيشبع ذلك فضولك ؟

– خطيبته ... !

– أيدهشك ذلك ..؟

– حتما، فأى إنسان مهما وأد مشاعره البشرية ومهما إنحدر إلى هوة الجريمة .. لا يمكن أن ينظر إليك إلا زمن زاوية معينة

– ولكنه لم يكن من طرازكم، ومن أجل هذا أحـبـبـتـه. إنه الانسان الوحيد الذى وهبته قلبى ولم ينتهك جسدى. هو السفاك ربيب الجريمة.

– تزعمين أنه من طراز أسمى من طرازنا ؟

– على الاقل هذا رأيى أنا فيه عن تجربة .. لم ينظر إلى أبدا كأمة تمنح المتعة .. عاملنى كإنسانه لهاقلب وروح.

هل تصدق؟ كان يبيت عندى كثيراً وبجوارى، لا يفصله عنى إلا إختـلاف تفكيـره عن تفكيـركم ... لم يطالبنى بما منحتـه للجميع ... كلهم أهدروا إنسانيتى وابتذلوها، بل إن المجتمع ذاته – بطريق غير مباشر – زجنى إلى هذا المصير، ومع ذلك يلعننى ..! كم كنت أتوق إلى كلمة حب وهمسة حنان ليس فيها الرغبة.. ثم عرفته .. كان يرثى لى ويشفق على لأن مصـيرنا متشابه، ورأى الناس فينا متمـاثل. كلانا طريد يطالب المجتمع بثـأره، فليس من الغريب أن ينجذب كلانا نحو الآخر ...

– وهل أعلن لك أنه يريدك .. أعنى زوجة ...؟

– أجل فقد سـأم هو حياة الجريمة وتبخر حقده نحو الناس .. الناس الذين دفعوه بقسـوتهم وتزمتهم ومعاييرهـم الجامدة

وضنهم بالغفران له عندما سقط أول مرة .. تاق لأن ينهى صراعه معهم ويعود إلى حظيرة المجتمع فرداً تائباً ناصعاً .. وباركت عزمه .. إننا مهما إنحدرنا إنسانيون، والانسان متأصلة فيه شيم الخير كما هى متأصلة فيه نوازع الشر .. صدقنى رغم شروره .. كان شهماً ذا مروءة .. كان يفرض الاتاوة على الاثرياء وينهب ويسرق ليمد يد العون إلى أسر معدمة، بل دعنى أميط لك اللثام عن سر ربما يجرح شعورك.. كانت أمك ضمن من يعاونهم لتنفق على تعليمك !!

وهنا فهمت سر طاقة الازهار !!

– أو لم يكن سفاكاً .. وأنت ألم تكونى جائعة ظامئة تعتصر الرحيق وتنفث السم ..؟؟

– كانت مهمة بغيضة إلى نفس كلانا ..!!

– ولماذا يرتكب الانسان ما يبغض.؟

– ليتقاضى من المجتمع دينه .. فعندما يبحث الانسان .. عن حياة متواضعة شريفة مكفولة ويحول المجتمع بينه وبين ذلك ليس من الغريب أن يكون معول هدم يسخره الشيطان.

– إنه عرض عليك الزواج وقبلت .. فماذا عاقكما ..؟

- فى نفس الليلة التى أزمعناها أن تكون ليلة حبنا .. ليلة عرسنا .. ليلة توبتنا .. لقى حتفه برصاص البوليس .

وانهمرت العبرات من عينيها .. وسرح فكرى بعيداً إلى افاق تغاير آفاق تفكيرى الأولى .. تلاشت رغبتى فيها وأعقبها شعور مبهم من الحنان .. إنهارت فكرتى عنها وحل محلها يقين غامض بأنها مظلومة وأنها ضحية . وأنحنيت عليها لا لأهاجمها وأعصر عودها كما كنت أريد أن أفعل .. وإنمالأ كفكف دموعها.

- نجوى .. أنا أريدك ..!

- كما يريدنى الآخرون .. أى شىء فى يجذبكم معشر الاطهار أقران الملائكة .؟

- لا .. بل كما أرادك حسن .. !

وفغرت فاها دهشة، ثم نظرت إلى عينى فرأت فيهما مضاء العزم

- نجوى كنت من قبل أنوب لهفة عليك، والآن لم يعد فيك ما يجذبنى غير روحك .. وأن أردك إلى الحظيرة

- إيغفر البشر خطايا البشر .. ؟

- إن الله يغفرها .. فأحرى بهم أن يقتدوا بخالقهم ...

وماذا يقول الناس عنك ..؟

– من كان فيهم بلا خطيئة فليرجمنا وأمسكت بمرفقها فنهضت معى وفى نظراتها المصوبة نحو السماء صلاة صامته.. وعدنا إلى المدينة، ومررنا فى طريقنا بجموع حاشدة .. كان البعض ينظر إلينا ساخطاً لاعناً .. والبعض ينظر إلينا حاسداً .. وجلّ النظرات يطل منها الاحتقار .

وأمام جميع الناس طرقت باب المأذون !

* نشرت بمجلة قصتى عدد يوليو ١٩٥٥

اغفر لها يا أبى

لم أكن قد ناهزت الرابعة من عمرى.. عندما هربت أمى مع عشيقها، وبالطبع لم أحتفظ لها فى ذاكرتى بصورة واضحة السمات.. وعشت بعد ذلك خلف سياج صفيق من الحزن تخيم فى أفق حياتى سحب الانطواء، وتعصف بطفولتى المبكرة أنواء الكآبة..

ولست أدرى لماذا كنت أرهب أبى وأخشاه وأرتعد فرقا كلما لاح لى وجهه المربد الصارم الذى ينم عن القسوة، فلم يحدث أبداً أن هش لى ولاطفنى. وعندما بلغت العمر الذى يمكننى من استيعاب المأساة أوصتنى مربيتى «أم على» أن أتحاشى ذكر أمىّ على مسمع من أبى لفرط حقده عليها، وأغدقت على من حدبها ما استعضت به عن حنان الأمومة.. ولكنى سجنت حياتى فى أصفاد الوحدة المتطرفة.. حتى أندادى من الأطفال لم أكن أحتك بهم لشعورى بأن السعادة ليست من حقى .

وكان أقصى ما أحظى به من متعة هو جلوسى بجوار «على» ابن مربيتى يسرد على نوادر العجائز بلهجته الساذجة ذات «اللغثة» الطريفة.. وذات مرة رآنى أبى أصغى إليه فى استمتا ع وهو يحدثنى عن «الشاطر حسن» فاستدعانى إليه وطفق يرمقنى شذراً ثم عنفنى بقسوة.. وشعرت برغبة عارمة فى أن أصرخ فيه وأحدثه عن تعاستى وجفاف حياتى، ولكنى لم أفعل سوى أن قلت : «إن الحياة مؤلمة إذا عاشها الإنسان دائماً وحده يا أبى»

واستغربت أن تكون هذه الكلمة مدعاة إلى حنقه..! فقد استشاط غضباً واستشف منها بوادر التمرد عليه، وأخرج من الخزانة سوطه وإنثال به على كيانى النحيل..!

ورغم الألم والتهاب ،جلدى فقد تذرعت بالعزيمة وأبيت أن استجدى عفوه، وقد غاظه ذلك فتمادى فى الضرب... ثم كف عنه وهو يهلث كثور هائج، ثم ألقى عل نظرة فيها شواظ الحقد ثم زمجر قائلا: «إنك قطعة منها..» وأدركت أنه يعنى أمى .. الهاربة..

وحاولت أن أوقظ شعور الأبوة فيه فابتدرته : «لقد ضنت على

الأقدار بحنان الأم فلا تحرمنى عطف الأب» وأشاح بوجهه وخرج .

وكان من عادة أبى أن يذهب إلى ضيعته فى فصل الشتاء.. فتكون تلك الفترة هى كل عزائى .

فما أجمل حياة الريف وما أحفلها بكل ما يدخل المتعة على النفس الصادية.. حياة فطرية ليس فيها التواء.. هناك بعد الغروب تداعب أناملى مياه الجداول وأنطلق عل سجيتى هائماً بين المروج.. وأحيانا تهرع إلى «حسنة» كريمة عم رشوان وأصغى إلى أحاديثها الطلية التافهة فى ذات الوقت .

وذات غروب سألتنى : «لماذا جلد البك عميش الخفير». ثم استطردت : «لقد أبكى صغاره، وقد استعدت زوجته السماء عليه» قلت : أصمتى على أى حال هو أبى.

– وهل أنت فخور به ..؟

– كل ابن يفخر بأبيه..!

– ولكن لماذا هو يسيطر على الناس عن طريق تخويفهم.. لا عن طريق الحدب عليهم ..؟

– حسنة .. إنه أبى ..

– ياه .. زعلت منى.. طيب أنت ليه ظريف.. يمكن طالع لماما .. صح ليه هى لاتبرح القصر..؟

ألقت على هذا السؤال بحسن نية فقد كان الفلاحون يجهلون المأساة.

وفاضت الدموع على صفحة وجهى وهممت أن أحدثها عن حرمانى، وأقول لها أن أمى امرأة قاسية شريرة بدون قلب، ولولا ذلك ماسولت لها نفسها أن تهرب وتدعنى لأب ظلوم ينتقم منها فى شخصى الضعيف.. ولكنى تماسكت وقلت: «إنها ماتت يا أختى..»

وارتسم الحزن على محايها البرىء وسألتنى : «إنهم يقولون أن أرواح الموتى تزور احبابها.. فهل زارتك روحها؟

– يبدو أنى شرير .. لذلك لم تزرنى روحها .

وعندما عدت إلى القصر استغرقت فى خواطر متنازعة.. من يدرى ..؟ ربما ألون متجنيا فى وصف أمى بالقسوة ربما يكون لها عذرها وأنا لا أعرف الدوافع التى ساقتها إلى مافعلت.. وهى وحدها تملك أن تدافع عن نفسها.. وبرق فى ذهنى خاطر.. قد تكون مربيتى على إلمام بظروفها .

وذهبت إليها وارتميت بين أحضانها وهالها أن ترى الدموع منسكبة على خدى.. فسألتنى : «هل ثمة ما يضايقك..؟» وأجبت بالنفى ..

- ولكن يبدو عليك العكس، وكنت أحسبك تثق بى..!

وأطرقت إلى الأرض ثم قلت : ألا تحدثينى عنها .. التى أنجبتنى ثم ركلتنى

- ألا ترى أنك فى سن لاتخول لك فهم ظروفها .. ثم إن هذالا يروق له ..

- على أى حال لم أعد طفلا..

- إسمع يا عادل، إنها ليست كما تتصورها شريرة أنانية تدعك وحيداً ولا تهتم بغير إرضاء نزواتها.. كانت طيبة ذات قلب مرهف.. لقد احتملت كثيراً.. ولكن لاتغضب إذا قلت لك.. إن الشيطان ذاته لا يستطيع أن يحتمل فظاظة والدك.. كانت فى ربيعها الثالث عشر عندما زفوها إليه وردة نضرة وهو الكهل الذى ينوء تحت وطأة الأعوام.. فأحال ربيع حياتها إلى خريف.. كان يرى فيها شبابه الذى ولى وربيعه الذى ذهب، فآلى على نفسه أن يشقيها.. وعندما وضعتك أصبحت كل حياتها ..

ثم ظهر الشاب الذى كانت تحبه وعاهدته على أن تكون له فى أفق حياتها من جديد.. وأشفق عليها.. على شبابها المهدور وربيعها المستباح، وأهاب بها أن تتمرد، وكثيراً ما قاومت رغبتها فى أن تتمرد، كثيراً ما قاومت ولكنها فى النهاية أذعنت مرغمة لنداء الشباب.. تسوقها جفوة أبيك.. لازلت أذكر دموعها ليلة هروبها وهى تقبلك فى جنون وتضمك فى التياع، وقد تركت لك رسالة أوصتنى أن أعطيها لك فيما بعد، وهى معى.. وقرأت رسالة ماما .

«ولدى عادل : أراك الآن بعين الخيال قد غدوت غلاماً رشيقاً، تتفتح براعم حياته لنسمات الشباب.. وبالطبع قد أعطاك والدك عنى فكرة مشوهة، وصورنى لك فى وضع مشين.. ولكن لاتصدقه يا ولدى أو على الأقل لاتصدق كل كلامه، لأن ما قاله لك عنى فيه تحامل الحقد.. أنا امرأة ظلموها فتمردت.. أرادوا لها أن تئد شبابها فثارت.. كيف أستطيع احتمال الحياة فى كنف عجوز صلف لاتعرف الرحمة طريقها إلى قلبه .. لست أنكر أنى خاطئة ولكن اعتبرنى ضحية.. أغفر لى يا ولدى فرغم ذلك لن تستطيع إنكار كونى أمك..»

وطويت الرسالة وتوجهت إلى مربيتى

- إنها تحاولت أن تخدعنى وتوهمنى أنها ضحية، وكيف تكون كذلك وتهجر وليدها من أجل رجل آخر ؟

ثم تسللت إلى غرفة المكتبة، وأضأت النور، وأعدت تلاوة الرسالة.

ثم داعب النوم أجفانى فأسندت رأسى على المكتب ورحت فى سبات عميق واستيقظت على يدتهزنى، وعندما فتحت عينى وجدته ممسكا بى.. وكان هو أبى ساخطاً: «لماذا غادرت فراشك؟».. ولم ينتظر إجابتى فقد لمح الرسالة، وكنت قد نسيتها أمامى.. فما أن فرغ منها حتى تجهم وجهه ثم قال: «تاريخها قديم فمن أتى لك بها..؟»

وشعرت بالخوف، ثم أطرقت إلى الأرض وأنا أقول : «لم يعطها لى أحد»

- وهل أتى بها الشيطان..؟

- كنت أقلب مخلفاتها فعثرت عليها..!

فقال متهكما: «لا تنس أن تعمل بوصيتها، إن هذه العاهرة لا يكفيها ما جلبته لى من عار فأرادت أن تهدمنى فى نظرك..

- أبى أتوسل إليك أن تكف عن هذا .. قد تكون كما ذكرت.. ولكنى أنظر إليها من زاوية أنها أمى .!

واستغرق يردد.. «أمك. أمك. أمك. ولكنها نسيت أنك إبنها أيها البار..» وأخذ يذرع أرض الغرفة ثم أردف: «بدون شك هى أمك ولكن ربما لا أكون أنا أبوك!!»

وفى هذه اللحظة شعرت بكراهية عارمة نحوه، وأيقنت أن أمى لها العذر فى أن تنطلق بعيداً عنه، وصرخت فيه «إنى لا أسمح بهذا».

- سأعلمك من فينا الذى يسمح وشرع السوط وانهال به على، وكعادتى دائماً وقفت فى شموخ، وكانت الكلمة الوحيدة التى نطقتها. «أين أنت يا ماما..؟» ثم ارتميت فاقد الوعى .

ذات يوم وصلت أبى رسالة منها.. من أمى.. تنهى إليه فيها أن الرجل الذى هربت معه قد لقى حتفه.. وتركها مهيضة لا عائل لها .. وأنها إذا كانت سقطت مرة باسم الحب والشباب فإنها لاتريد أن تسقط مراراً بإسم الجوع. وتضرعت إليه أن يسمح لها بالعودة لا كربة بيت وإنما كخادمة ترعاه وترعى وليدها.. وتوسلت إلى أبى أن يعيدها فقلت له: «ربما تكون قد

ندمت وشعرت بفداحة سقطتها لأن التجربة قد طهرت روحها..
لقد تذكرت أنها أم فاغفر لها ..»

ولم تختلج لتوسلاتى ودموعى عضلة واحدة فى وجهه، بل زمجر يقول.

– أسكت يا كلب.. من المحال أن تدخل البيت الذى لوثته بعارها

– أهذا قرارك الأخير يا أبى..؟

– إنى أعنى دائماً ما أقول

ومرت حياتى تعسة شاحبة لا يلوح فيها وميض من الهناء..
وكنت أبعث إليها بكل ما يقع فى يدى من مال.. ثم أقعد المرض أبى فكنت أبتهل إليه أن يعيدها، ولكنه يمضى فى العناد..

وأرسلت إليها أدعوها وليكن ما يكون.. وعندما رأتنى عرفتنى للتو وعرفتها كذلك، وهرولت نحوى فى ذهول وقبلتنى فى لهفة..
ثم ركعت تحت قدمى :

– أغفر لى يا ولدى

وكفكفت دموعها المنهمرة ووقلت

– أنت أمى ..

وأنهيت إلى أبى خبر عودتها فثار وهم بأن ينهض ليطردها .. ولكن المرض منعه، ودلفت هى إليه وخرت راكعة بجوار فراشه تضرع إليه أن يمنحها الغفران، وأشاح بوجهه بعيداً وهو يقول: «إنه إبنك ومن حقه أن يقرر مصيرك» قلت: «اغفر لها يا أبى..»

وشعرت أن نوازع الرحمة فى قلبه أوشكت أن تلمع تحت رماد الحقد، فاستطردت: «بحق السماء اغفر لها يا أبى، ولأول مرة انمحت القسوة البادية على سحنته، ثم نظر إليها بامعان كما ينظر القديس إلى خاطىء يبغى الغفران، ثم قال:

– إن السماء تغفر.. وأحرى بنا أن نقتدى بالسماء.

---

* نشرت بمجلة قصتى عدد أغسطس ١٩٥٤

لم يعد أعمى

لم أكن قد نضوت عنى رداء الطفولة عندما فقد شقيقى أحمد بصره من جراء اصطدام عربته بسيارة نقل كبيرة فى الطريق الصحراوى، ولم تكن الصدمة كارثة بالنسبة إليه وحده، بل إمتد تأثيرها إلى حياتنا جميعاً، فران على البيت جو من الكآبة، وفرض أحمد على حياته عزلة غامضة .

لم يعد يغادر حجرته أو يرى من الغرباء سوى سكرتيره الخاص الذى يملى عليه قصصه وأبحاثه، ويطالع له الجديد فى عالم الأدب .

كان وقتها فى نضارة الشباب وعنفوان الصبا، ولكنه أصبح يعيش حياة لايمكن أن يطيقها رجل فى خريف العمر.

وزاد من تأثير الصدمة أن خطيبته تخلت عنه فى محنته فأصبح ضيق الصدر مفرط الحساسية .

وعندما نموت وتطور إدراكى شعرت بحاسة الأنثى أن حياته القاحلة تفتقر إلى امرأة تحيل ثلج شبابه إلى جمر يتوهج

بالأمل. وحدثته كثيراً فى هذا الشأن، ولكنه كان لايزيد على أن يقول : «أنا أعمى وفى هذا الحيز يجب أن ينحصر تفكيرى».

كان يشهر فى وجوهنا هذه العبارة عندما نلح عليه فى أن يغير مجرى حياته. وكانت هى صدى لمشاعره، ومع ذلك عندما يتطرق الحديث إلى الأنثى، ترتسم على وجهه الرغبة المكبوتة الظامئة .

وكان بوسعه أن يجد من ترضى به زوجاً، فموارده المادية معقولة إن لم تكن مفرطة. ولكنه لايريد علاقة زوجية تعتمد على تبادل المنفعة. فقد كان يشك فى وجود المرأة التى تحبه لشخصه ومزاياه المعنوية، فتكون النور فى دياجير ظلامه، واليد الحانية التى تهدهده والروح الأليف الذى يعانقه. ويبدو أن خيانة خطيبته هى التى أمدته بهذا الشك .

وإذا كان هذا التشاؤم قد لون حياته الخاصة فجعله يقسو على شبابه فيمعن فى القسوة، فإن هذا الشك أيضاً قد إمتد إلى نتاجه الأدبى .

وقد اتخذت حيال عناده موقفاً إيجابياً، فبدأت أدعو إلى منزلنا بعض الصديقات وذوى القربى وأعرفه بهن، ومع ذلك

أخفقت، فقد كان يبدو مطرقاً ساهماً يندر أن يشاطرنا الحديث، وعندما يرد على سؤال لإحداهن يبدو مختنق النبرات تكاد ترتجف الكلمات على شفتيه .

وأخيراً صارحني بأن هذه الإجتماعات لا تروق له، وطلب مني أن أعفيه من هذه الاجتماعات، أجل فقد كنت أتوخى من ورائها أن يختار منهن شريكة لعمره تدفيء شبابه المقرور. ولم أكن أتوقع منه هذه الثورة المغرفة في الإنفعال.. فقد أخذ صوته يهدر وهو يقول : «أنا أعمى .. أعمى.. وفي هذا النطاق يجب أن ينحصر تفكيري وتفكير الآخرين بالنسبة لي .. ليس للمشلول يا صغيرة أن يهفو للجري وسط المروج ، ولا للأصم أن يطرب للنغم.. ولا للأعمى أن يشاهد ساقط الطل على حواف الزهر.»

وتلاشت حدة صوته بعض الشيء ونكس رأسه إلى الأرض ثم استتلى :

– من هي التي ترضى طائعة أن أحيل جمر شبابها إلى رماد.؟»

كان محقاً، ولكنه كان أيضاً مبالغاً. وأجبت: «أنت تسرف في التشاؤم.. إنهن كثيرات»

– كثيرات، وعندما تكون المصلحة أو الشفقة أساساً للعلاقة الزوجية ستكون ستاراً مموها يتمزق ذات يوم.. المرأة تريد من الرجل أن يسبغ عليها حمايته، وأن تشعر أنها فى كنف رجل يزود عنها عوادى الأيام، وعندما ينعكس الوضع تكون هناك مبررات مفتعلة سرعان ما تكشف عن زيفها الأيام. هل أستطيع أن أشاركها نشوتها لمرأى أسراب الطير تحط فوق الفنن..؟ أنا حطيم الروح يا حلوة وليس من حقى أن أستروح نسمات الأمل .

– أن لك قلباً يجب أن ترضيه وجسداً لابد أن تشبعه .

– ما أنكرت ذلك .. ولكن لى أيضاً مبادئى .

– عندما تقف المبادىء حائلا دون أبسط متع الحياة فسحقاً لها.

– أنا لا أطيق طعم حب أشتريته بالشهرة .

كنت ضعيفة أمام منطقة، ولكنى رغم ذلك لا أشك فى سلامة رأيى كانهت قضية عادلة ولكنى خسرتها، فأحياناً يكون صوت القانون أبلغ من صوت الحقيقة، وعزمت أن أستأنف القضية فى الوقت المناسب .

– أحمد .. دعك من أفكارك تلك الموغلة فى التشاؤم وهات

يدك فنسمات الأصيل تترنح لوقعها أغصان الحديقة .

– من لايرى فتنة الطبيعة طبعاً لا تخامره الرغبة فى أن يهرع إليها .

– يكفيك أن تحسها .

– إحساسى بها يجسم لى حرمانى منها، فالجائع يحس بوطأة الجوع عند ما تداعب خياشيمه رائحة الشواء».

ونهضت أترنح من فرط الألم. ومرت الأيام ولكنى لم أقلع أبداً عن الدفاع عن قضية آليت على نفسى أن أكسبها. كنت أعرف أن الحرمان يشويه، وأنه – كأى رجل – دائم التفكير فى المرأة يتوق لأن ينسى عذابه فى قبلة.. إنه يحن إليها ويلح فى الحنين، ولكنه لا يريد أن يدع هذه الرغبة تتنفس أبداً .!

وسنحت الفرصة أخيراً عندما امتدت ثورته إلى سكرتيره فطرده وبعد جهد أقنعته باستخدام سكرتيرة ووجدتها. كانت إحدى صديقاتى من المعجبات بأدبه.. ذات جسد ممشوق رائع ونبرات موسيقية منغومة وإن كانت تشوب وجهها دمامة ظاهرة.

وما جدوى جمال الوجه بالمنسبة لأحمد؟ يكفيه منها جمال الروح، ولها منه قسط وفير – ثم إنها رغم رقتها وذوقها – من

نوات التفكير العملى، ولها شخصية قوية تستطيع أن تطوى عناد أحمد .

كنت واثقة من أنها ستكون ذات أثر فى حياته، ولم أصارحها طبعاً بما يراد منها، وإنما أملت أن تأتى هذه النتيجة طبيعية.. وصارحتها بالعيوب التى طرأت عليه من جراء الصدمة .

وقدمتها إليه فلم يزد على أن قال :

«أتدرك الآنسة مشاق المهمة التى ستناط بها؟» ولم يباغتها هذا الفتور من جانبه فأجابت: «أجل أعرف ما يراد منى».

– إذن لنبدأ غداً .

وكانت هذه إيذانا بانتهاء المقابلة وما أن وصلنا الردهة حتى قلت لها :

– ألم أقل لك أنه سيخيل إليك لأول وهلة جافاً.. ثم إنى لا أكتمك أنه أحياناً يكون فظاً .

– ليس من الغريب أن يكون هذا طبعه وسأحاول تغيير نظرته إلى الحياة .

وسرنى أنها التمسست المبررات لجفونه .

وبمرور الأيام فطنت «إحسان» إلى ما يعتمل فى أعماقه

فأخذت تدنو منه محاولة أن تعطيه عن الحياة وعن المرأة فكرة غير التى يصر عليها. منحته الحنان وردت إليه الثقة وحطمت سياج عزلته. فها هو يرتاد برفقتها النوادى والحدائق، ويتذوق الموسيقى بسماع المقطوعات الرائعة التى تعزفها أناملها الرشيقة. ومن تفانيها فيه أدركت أنها تحبه، ولم أكن واهمة.. فقد صارحتنى هى بذلك .

وأدركت أيضاً أن أحمد هو الآخر يحبها وأن كل ذرة فى كيانه تناديها فوميض السعادة أصبح يتألق على جبينه، ومع ذلك يقمع إحساسه مع كثرة ما حاولت استدراجه إلى الأفصاح.. وضاقت إحسان بكتمانه وعجزت تلميحاتها عن أن تستدر اعترافه.. فأدارت الجرامفون بقطعة راقصة، وأمسكت به ليرقصا على إيقاعها.. كانت حركاته ساذجة وجلة، ولكنها لا تخلو من رشاقة. وكانت هى تشده إلى صدرها برفق، فكان يتراجع فى حركة بارعة محاولا أن لا يدع صدره يحتك بصدرها الناهد، وأنفاسها الساخنة تلفح وجهه فتنطلق رغباته المكبوتة.. ولكنه قرر أن يصمد إلى النهاية.!

أيعتقد أنه من اللازم أن تمرغ هى خجلها أولا ؟ ربما كان

هذا ما يفكر فيه

وبكل ذرة فى كيانها جذبته إلى صدرها الشامخ الرجراج! فانتقض فى عنف.. وبكل ما فيه من قوة أفلت ذراعيها من حول خصره وألقاها على الأرض .. كانت الصدمة جائرة، حتى أنه ارتاع، فقد خيل إليه أنها تهشمت لامراء.. وانحنى يتحسس موضعها، وكانت هى فى غشية الصدمة فارتطم بالجدار وتدفق الدم من جبهته.

ونسيت كل شىء.. نسيت وحشيته، والطعنة التى صوبها لصميم أنوثتها، ونهضت تضمد جرحه فى حنان وقلبها ينفطر وأنفاسها تلهث وأوصالها تئن، وبدافع لاشعورى امتدت يده تلمس شعرها ووجدتها فرصة فقالت :

– ألهذا الحد تخافنى. ؟

– بل قولى إنى أخاف عليك منى. ثم إنى أكره أن يرثى لى .

– ولكننى لا أرثى لك فللرثاء حد ولن يكون على حساب الأنوثة. عندما تشفق المرأة لا تتقدم هى أولا .

– لا تخدعينى .

– أهناك ما يدعو ؟

– قد تكونى إنسانة .

– لا تنس أنى امرأة.

وذاق دسامة القبلة ورضاب ثغر المرأة عندما تحسس فمه الطريق المعبد إلى شفتيها . كانت أول قبلة بعد طول حرمان فلا غرو أن ترنح من فرط ثمله بها، وأسندته إلى صدرها .. وغدت حياته لحناً من السعادة.. لم يعد يشعر بأنه أعمى .. وتسلل هذا الشعور إلى إنتاجه، فأصبحت قصصه امتداداً للحياة فى تطورها وخلودها، وتعدت شهرته النطاق المحلى، فترجم أدبه إلى اللغات الأخرى، وكتبت عنه بعض المجلات المهتمة بالنقد الأدبى، ونوهت عن الصدمة التى حلت به.. ونتيجة لهذه الشهرة وصلته رسالة من طبيب عالمى يعرض عليه خبرته فى أن يرد إليه بصره الأفل.. واستغرقتنى السعادة كما استغرقت إحسان.. أجل اجتاحتها سعادة فارهة طاغية.. آه . أمن الممكن أن نراه مبصراً..؟ ولم لا..؟ حالات كثيرة قد حالفها التوفيق من قبل، أما هو فقد قال : «لا جدوى من ذلك» وإن كان الأمل قد دغدغ روحه، ومن عادته أن لايطلق العنان لأمله أمام الآخرين .

أما هى فاستغرقت تحلم بهذا الأمل. وفى غمار نشوتها

الساحقة نسيت أنها دميمة، وأنه سيرى دمامتها، ولكن المرآة المثبتة فى الجدار المقابل لم تدعها فى نسيانها، فقد صدمتها بمرأى وجهها وأحسست بنصل مرهف ينساب فى سويداء قلبها.. «سيكون مبصراً لتفقديه يا مسكينة..» هكذا قال لها وجهها البادى فى المرآة ودهمتها خواطر كثيرة لبثت تطاردها فى إلحاح.. «سيهجرك بعد ما يرى دمامتك.. إنه الآن يخالك فاتنة كصدرك هذا الشامخ العريض. رائعة كخصرك هذا الرشيق.. وعندما تصدمه دمامتك سيركلك لأنه لا يمكن أن يئد شبابه ويتقاسم الحياة مع امرأة دميمة .. سيرى النور.. ولكن .. لتعيشى أنت فى الظلام.. إنه فنان والفنان بسليقته ينفر من الدمامة لأنه هو ذاته قطعة من الجمال. وهل الفن إلا الجمال.؟

وأخفت وجهها براحتيها وتهالكت على مقعدو استغرقت تبكى.. ولكنها قاومت خواطرها وأرسلت للطبيب تدعوه. إن كل ما يهمها أن يرى النور، وليكن بعد ذلك ما يكون .

وجاء الطبيب يحمل معه الأمل المنشود. وبعد فحصه صرح أن من الممكن أن يعود إليه بصره ومن الجائز أن لا .. ولكنها نجربه نسبة الأمل فيها أضخم من نسبة اليأس.

وأجريت له العملية .. وفى الساعة المجددة لرفع الضمادات عنه، لبثت وإحسان بجواره يلفنا الصمت. وعندما قدم الطبيب قالت إنها ستدعنا وحدنا لأن أعصابها المتوترة لا تستطيع أن تصمد للمفاجأة .. خرجت وفى عزمها إصرار على أن لا تعود.. وخرجت فى أعقابها .

– إحسان .. كونى عاقلة واقلعى عن أوهامك.. تعالى معى .

– سأعود ولكن بصفة ممرضة. ورفعت الضمادات.. وكانت مفاجأة .. لقد رأى النور.. يا إلهى كم أنت عطوف .

وفى غمار المفاجأة نسى أن يشكر الطبيب المنقذ وهتف :

– إحسان .. أين هى .؟ دعونى أراها .

وجاوبه الصمت، فقد أخرسنى انفعال الفرح، أما المنقذ فقد ركع يصلى للرب الذى كلل جهده بالنجاح. وتحول أحمد إليها.. إلى الأخرى التى ظنها ممرضة وطلب منها أن تدعو إحسان.. ولم تتحرك، ولم تجب فهو يستطيع أن يميز صوتها.. وانهمرت الدموع من عينيها.. ودنا منا وأخذ يتملى فيها ..

وعجزت عن أن تسيطر على انفعالها فقالت وهى مأخوذة مشدوهة:

– لقد ذهبت.. ذهبت ولن تعود، إنك الآن لست بحاجة إليها.!

وعرف الصوت .. الصوت الذى كان يهدهده ويناجيه.. حدق فى وجهها فأدرك ما دعاها إلى ذلك ولكنه لم يرها دميمة.. لأنه لم ينظر إليها بغرائزه.. وتناول منديله ومسح دموعها واحتواها بين أحضانه، ثم أفلتها برفق وفى نظرته بريق السعادة والأمل ..

– يالك من طفلة .. أكان من المحتم على أن أزيل دموعك الغالية بشفتى؟ وأفتر ثغرها عن ابتسامة ملؤها الأمل ..

---

* نشرت بمجلة قصتى عدد أكتوبر ١٩٥٤

العذراء الداعرة

تثاءب ويده اليسرى تعبث فى جفنه.. واليمنى أعملت الهرش فى جلده الذى تناثرت فوقه لسعات البق، وفى طويته يضمر شماتة نذفة لبقة دهستها أنامله فى جولاتها المستمرة.. وفى أخاديد فكرة تتسكع لعنة استمطرها لبائعة اللبن العجفاء كجرو أجرب.. تباً لهذه العجوز.. كأنها تقوم بتنفيذ مؤامرة هدفها إقلاقه.. وحار فى تفسير هذا التناقض بين ضآلة حجمها ووهنه وبين صوتها ذى العويل.. ترى لماذا لا يدعونه غارقاً فى أحلامه البلهاء؟ وما جدوى استقبال يوم جديد لاشك حافل بالمتاعب كأنداده.. ولعن حياة الوظيفة ودوران صاحبها فى دوامتها وتناهى إليه صوت الأب يهيب بالأم أن توقظ هذا الكسول المتكوم.. وشعر بالغثيان لمجرد تخيله لصورة هذا الأب الجهم الصارم التى تنم تقاطيعه عن غشامة... كم هو ينفر من رؤية أنفه الغليظ المفرطح الذى تشبه نهايته قاعدة الهرم.. وأشد ما يبغضه منه لهجته الهادرة التى تتشدق بحكم مخرفة!

– هل نهض هذا الفأر.؟

وأجابه صوت الأم ذو الجرس الرفيع كمواء قطة حبلى :

– إنه مثل كلاب خالتى أم السعد، لا يحسن غير التهام الطعام والإستغراق فى النوم كخفير الدرك بعد ما تمر «الدورية»

ونهض من فراشه يخب فى شبشب مفتوق وهو يترنح كمخمور أطلقوه على دن معتق، ويشعر لبطنه كركبة كأنها بطن جواد راكض.. ثم اقتحمت خزانة تفكيره ذكرى الليلة الفائته.

وتخيلها أمامه واقفة فى عظمة كأنها من سلالة الآلهة.. تعلو فمها ابتسامة رشيقة.. بعودها الفاره. وصدرها المنحدر فى انسياب وعينيها الخضراوين كوريقات البرسيم .. ونظراتها التائهه.. أغلب الظن أنها غريبة عن حياة الليل وعفونته.. عندما رآها قال لنفسه: أحرى بهذا الجمال أن يتألق فوق القمة.. فكيف به يمتهن فى الوحل.. وتنهشه السوق.. لقد أذهلته تماماً.. ووقف قبالتها مبهوتاً يحدق فى فتنة لم يعتدها فى بنات السوق وحسب.. وإنما لم يعتدها كذلك فى جميع اللواتى رآهن .. وابتدرها: «أهابطة أنت من المريخ يا فتاة؟. فليس بوسع الأرض أن تنجب فتنة مثل تلك..» وحدجته بنظرة ساخرة وأجابت: «كم

كأساً يا صاح جرعت..؟»

وتجاهل سخريتها وأطلق العنان لخواطره .. وهو متهالك على مقعد فى الردهة.. ومضت ساعة تقدم منه أحد الرفاق يذكره بدوره .

– وجدى .. لقد حان دورك.. قم واغترف من نشوة ما أحسبها قد توفرت إلا لأنوثتها .

ولكنه لم يجب، فقد كان مستغرقاً فى خواطره يتأمل حياته التافهة.. حياة الليل والكأس وأجساد السوق. وجذبه صديقه مرة أخرى يذكره بدوره.. ونهض صامتاً ووجهته الشارع.! وتجمع الرفاق كل يسأل ما خطبه ..؟

– لا شىء غير أنى أشعر باعياء ووهن ..

وتقدمت هى منه تحدجه بنفس النظرة الساخرة مشوبة بغموض وألصقت كفها بجبهته وقالت :

– دعوه ينام.

وحدق فيها بابتهال كأنما هى قديسة!

ومرت أيام كان وقتها يستجلى مقاتن الطبيعة على الشاطىء، ويرقب الشمس الباهتة منحدرة نحو الغروب طاوية معها سرها

السرمدى.. ورآها ترتدى بلورة زرقاء.. وشعرها قد انسدل على كتفيها وعلى وجهها سحابة من حزن دفين أضفت عليها جاذبية الغموض.. وتصدى لها وحالما نظرته اعترتها دهشة بدت فى ارتباكها :

– أهذا أنت ؟ ما توقعت أن أراك.!

– وأنا كنت أبحث عنك.

ولكنه استدرك وفطن لتسرعه فقال :

– أعنى كنت أفكر فيك ..

وكأنما هو يعرفها من سنوات خلت تأبط ذراعها، وسار بها حتى وصلا حديقة عامة فولجاها، وانطلقت هى تركض وتغنى أشبه بطفلة غضة لم تدهمها التجربة.. وعندما انهكها الجرى ارتمت على صدره وقلبها يزفر آهة.. وبعد برهة قالت : «الطبيعة ترد إلى روحى.. معها أشعر بأنى إنسانة .. إنسانة نظيفة..» وأرسلت نظراتها عبر الأفق.. ثم اكتسى وجهها بظلال من الأسى واستغرقت فى تأمل عمثق، ولم تلبث أن انخرطت فى بكاء مزق نياط قلبه.. ترى أية لعنة ساقتها إلى السقوط؟.. وتركها تبكى فالبكاء هو المتنفس الوحيد لنفس تعانى العذاب..!

وخرج بها ثم ودعها بدون ما كلمة غير « .. طاب ليلك..» ثم بطاقة فيها عنوانه .

وتوالت زيارتها له وتوثقت معرفته بها .. وسبر أغوار نفسيتها .. ولمس فى تصرفاتها وبدواتها مالم يألفه أبداً من مثيلاتها .. فهى تطالع فى الفلسفة والإقتصاد .. وتناقشه فى مذاهب الفكر وظواهر الإجتماع .. وتوسم فيها طيب الأرومة وعراقة المحتد .. فاحترمها وعاملها كإنسانة لها كرامتها وكبرياؤها .. وشعر بأنها تزحف نحو قلبه..! فالحقيقة التى استخلصها أنها ليست محترفة وإنما هناك عقدة نفسية تحرضها .. فهى دائماً تهرع إليه بعد فراغها من عملها فى إحدى الشركات، وتقضى جل الليل معه فى براءة تطالع أشعار راسين وفلسفة كونت.. وتستوعب نظريات ولز .. وكرس لها فراغه وفصم علاقته برفاق الليل.. وبدأت نفسيته النظيفة تتبلور بعد ما أزاح عنها سديم العفونة ورواسب التلويث العارض. فها هى لا تشاهد فى نظراته بريق رغبة فيها .. كل ما تراه مزيج من الحنان والإعجاب بثقافتها العارمة. وأحياناً تشاهد فيها شيئاً غامضاً لم تكتمل سماته .. وربما يكون حباً .

وهى .. هل أحبته..؟ سؤال طالما ألح عليها.. كل ما تدريه أن حياتها تطورت بعد معرفتها له .. لقد نسيت فى ظل حدبه آلامها .. والتأمت جراحها ولم تعد تكدرها الذكرى .

وكم بكت وأذابت روحها فى دموعها.. عندما حدثها عن حياته.. عن طفولته وشبابه.. وغرامه الأول ذلك الغرام الذى تذكيه نصاعة اليفاعة ثم امتدت يد الموت إليها فانتزعتها منه ولم تفجعه الأقدار فيها وحسب.. بل فجعته فى شقيق حبيب.. كان له بمثابة الضوء فى دياجير الظلام.. كان باراً به عطوفاً عليه .. يمنحه الحنان ووعى التجربة.. طهارة الأنبياء فى قلبه ونصاعة القديسين فى روحه.. رحيم كملاك.. كم فزع إليه فى الشدة ونشد عنده الهدى عندما يضل واليقين عندما يرتاب، وكم شعر بالفخار المشوب بالخوف عندما ذهب هذا الشقيق إلى فلسطين الذبيحة ليدافع عن عروبتها المستباحة بدمه.. ثم أضيف إسمه إلى قائمة من قدمتهم مصر قرباناً للعروبة .. وعندما ذكر على سمعها إسم فلسطين .. ألمت بها رعدة عنيفة، لعل فى حياتها ذكرى ترتبط بهذا البلد الصريع.

وكان يؤله أنها لم تحدثه أبداً عن ماضيها .. وتاق لأن ينتزع

منها سرها وذات يوم ابتدرها : «ألا تنوين إزاحة هذا الغموض الكثيف عن حياتك يا عفاف .. ؟»

– ولماذا تشغل نفسك بحياتى .؟

إنها لا تحوى شيئاً أحدثك عنه ..!

– عفاف .. أنت الآن شىء مهم فى حياتى، وأنت لم تلاحظى ذلك لأن وضعك يجعلك لا تصدقين أن رجلا يمكن أن يتطلع إليك بنظرة غير التى عهدتينها فى الرجال.»

وأخيراً حدثته عن حياتها .. عن طفولتها فى قرية من قرى الصعيد النائى وحيدة أبوين .. أحتكرا لها كل حنانهما .. ثم نزحت الاسرة إلى القاهرة. وعن ذكرياتها فى المدرسة وعن أحلامها وهى صبية مراهقة.

ثم ضارب أبوها بثروته فخسرها .. وكانت الصدمة جائرة فأودت به، ثم التقت بالذى وهبته قلبها .. وأحبته بروحها .. وكانت حياتها معه أغرودة شيقة .. وكانت وقتها تنفق من بقايا الثروة الذابلة.. وكانت سعيدة حتى أن رحيل أمها لم يؤثر فى سعادتها .. فقد أصبح هو كل دنياها وعالمها .. حتى انتزعه الموت منها .. بعد ما ذهب إلى فلسطين وفوق أرضها سفح دمه

... ولكن ... بعدما أطاح ببكارتها .. والحقيقة أنه لم يغرر بها فقد استسلما معاً فى نوبة وله مزدوج قاهر، وهى لا تلقى التبعة عليه .. ولم تشعر بالندم .. فقد ندم هو لانسياقه لهواه الجامح وأقسم لها أن يكفر عن خطيئته.. ولكن القدر لم يمهله فقد كان الموت له بالمرصاد .. وهى رغم كل شىء لا تحقد عليه وإنما تغفر له .

ومرت الايام .. وكلما تقدم لها خطيب صارحته بالحقيقة فيولى الادبار ثم نضب ما فى يدها وباعت كل شىء حتى جهاز الشقة.. وبدأت تبحث عن عمل .. وكانت هناك أعمال عديدة وكل صاحب عمل يريد الثمن .. وهى من جهتها ترفض أن تكون عشيقة إنسان .. والجوع .. إنه لا يعرف الرحمة، وينكر هذه الاكذوبة الضخمة التى يدعونها الشرف .. وكان أن فقدت الثقة فى كل شىء .. ثم استولت عليها رغبة .. هى أن تنتقم من هذا الشرف .. ومن النفاق الإجتماعى ستبذل نفسها .. لكل من يريدها .. حتى بدون ثمن ..! وهذا ما حدث عندما فرغت من حديثها قالت :

«أرأيت أنى كنت أعى ما أقول عندما قلت ليس فى حياتى ما

يستحق أن أسرده عليك .. لعلك كنت تتصورنى إحدى بطلات الاساطير .

ثم أنكفأت تبكى

وكلما مرت الايام تكشفت له نفسيتها على حقيقتها .. فاعتقد أنها مازالت عذراء ..! عذراء الروح والقلب والعاطفة .. وإن كانت التجربة أمدتها بنظرة ساخرة أصبحت طابعاً لها .. وقرر أمراً .. حدثها عن وحدته .. وعن سحب الهموم الداكنة التى تخيم فى أفق حياته .. وكيف أن طلاسم الحزن انجابت عندما عرفها، ونسى الماضى ولم يعد يحفل بغير المستقبل .. وعن حاجته إلى قلب كبير يسنده وروح حنونه تباركه .. وهى القلب الذى يريد والروح التى يبغى .

ولم تفطن لمرماه فسألته «هل أردت منى شيئاً وضننت به..؟»

– أنى أريدك .. أريدك زوجة تشاركنى عمرى .

كانت صامته وهى تصغى إليه وقد تندت أجفانها بالعبرات .. وفجأة وثب الماضى أمامها .. الماضى المسربل بالأوحال .. المفعم بالعار .. الحافل بالضياع .. وصاحت وقد تمشت فى جسدها رعدة.! «ما هذا؟ أمجنون أنت؟ كيف ينحدر تفكيرك إلى هذا

الحد السخيف؟. لقد أصبحت كل شيء في حياتي ولكن .. ليس معنى هذا أن يروق لي تصرفك هذا .. فلا زلت أحتفظ بفضله من شعور من شأنها أن تجعلني أحتقرك .. إن للشفقه حداً ليس لها أن تتجاوزه .. ماذا أملكه حتى أهبه لك .. قطعاً لا شيء .. جسدي قد تقمصه العار .. جمالي قد انتهكته الليالي .. روحي غطاها الوحل .. قلبي .. إنه شيء عديم الجدوى ..!» ثم أنهمرت دموعها وكادت تخور فأسندها، وعندما استعادت رباطة جأشها أردفت : «إن المجتمع سيلعنك .. والتقاليد ستطاردك .. والندم سيتعقبك ..»

– عفاف عندما رأيتك كنت قد نسيت الروح .. ولما عرفتك عفت الجسد .. أما المجتمع فهو غبي وتافه، وما أقمت يوماً وزناً لما تعارف عليه.

أما التقاليد فلن أكون أبداً عبداً لجمودها وتزمتها .. أنا وحدي أتصرف في حياتي وفق ما يروق لي .. هل تخرج التقاليد عن كونها مجرد عادات تعارفت عليها أجيال بائدة ؟ .. ومعنى كوني إنسان هو أن أتخذ الوضع الذي يلائمني .. والندم محال أن يخالجني لأني أزمعت هذا بعد دراسة مستفيضة لك .. وليس

قرارى هذا وليد نزوة أنسانية طارئة .. صدقينى أنت حبى قد بعث .. أما ماضيك فإنى أغفره ..!

ولكنها رغم ذلك أبت الإذعان لما توهمته عرضاً تمليه عاطفة عارضة لم تمتد جذورها فى أغوار نفسه، وهددته بأن تختفى من حياته لو عاد وحدثها عن ذلك .. ولم يكن يتوقع هذا فأكبرها وتسامقت فى نظره .. وقمع هذه الرغبة حتى يتسنى له أن يقنعها.

وذات يومخ .. دخل عليها حجرتها فوجدها تبكى وبيدها صورة .. فأمسك بها يتأملها، وما كاد يفعل حتى أجفل وطفق يردد : «حلمى .. حلمى!» ولبث يمعن التأمل فى صورة أجب مخلوق لديه .. وسألته : «هل تعرفه ؟

إنه حبيبى .. الشهيد ..»

ولم يجب وإنما لبث يردد :

– أعرفه ؟! أعرفه !؟

وغشيت الدموع مآقيه

وفجأة أمسك بها واحتواها بين أحضانه وهو يقول : «عفاف .. لأخى على دين قد حل وفاؤه .. يا حبيبتى إنى سعيد إذ أكفر عن خطيئة أخى ..»

---

* نشرت بمجلة قصتى عدد يونيو ١٩٥٥

عندما نجوع ..

«صديقى .. فى الليلة الفائتة كنت أهيم فى الظلام تنتهينى خواطر متشائمة ممعنة فى اليأس .. وبينما أنا أسير هكذا شارد الفكر مكدوداً، إذ ارتطمت قدمى بشىء تحسسته فإذا بهذا الشىء طفلة شريدة بلا مأوى .. أنهضتها فهبت من رقادها تنتفض مذعورة فسألتها : «لماذا أنت هنا يا صغيرتى» فأجابت فى ذلّة : «لأنى لا أجد مكاناً غير هنا..»

فربتت يدى عليها فى حنو وأفرغت لها القروش التى يحتويها جيبى .. ونزعت معطفى فدثرت به جسدها المقرور.

وتركتها لأعود إلى تفكيرى المتشائم اليأس الحزين .. ولعلك يا صديقى تتساءل الآن لماذا أكتب لك بالقلم الرصاص ؟. فاليك السبب الطريف :

عندما انحنيت لأنهض الطفلة الشريدة الضالة تسللت أناملها الرقيقة واستلت من جيبى قلم الحبر الفاخر !

---

* نشرت بمجلة قصتى عدد أبريل ١٩٥٤

أمينة
قصة مصرية

«العالم لا يخلو من الناس الشرفاء ..
فقط يحتاج إلبى عملية ترميم لإصلاح
ما أفسدته الظروف فيهم..»

(جوركى)

الحياة فى صعيدنا جافة، قاحلة، متشابهة أيامها.. وراكدة.. بدون ما تجديد يزيل رتابتها أو تغيير يضفى طرافة عليها.. وهكذا كنت أنفق حياتى فى تلك البلدة النائية فى الصعيد.. وأخصب فترة فى حياة بلدتنا.. وأحفلها بالبهجة والإمتاع تلك التى تحتفل فيها بمولد (أبو على) ولى الله ذو السر الباتع.. فى تلك الفترة فقط يزايل بلدتنا الركود الذى يرين عليها.. فتمور بالنشاط والصخب.. والحركة ..

ولا غرو أن تحتفى بلدتنا بمولد (أبو على) إذ يندر أن يوجد

فرد فى بلدتنا ليست له تجربة مع ولى الله تؤكد أنفاسه الطاهرة الماثلة فى (كراماته) المتوالية..! بل أمى ذاتها.. أمى المثقفة التى لبثت ثمانية أعوام لا تلد.. تزعم مخلصة مؤمنة بزعمها.. بأن الفضل فى إنجابها يعود لولى الله.. فلا يكاد يفد يوم الجمعة من كل أسبوع حتى تصطحبنى وأخوتى إلى مقام ولى الله.. وتظل تتمسح فى الضريح فى ابتهال وضراعة.. ويلوك فمها عبارات التوسل المتهدجة.. فى خشوع ورهبة.. مما يجعلنى استشعر خوفا مبهما.. ورغبة فى مغادرة المكان.. وما أكاد أفعل حتى أتنفس فى ارتياح ..

وما انفكت بلدتنا تلوك أسطورة زاعمة بان مأمور المركز حاول ذات موسم أن يعطل المولد لما يقترن به من جرائم الثأر والنشل فكان أن جمح به الفرس والتوت ساقه.. فطفق يصرخ ضارعا منذللاً (سامحنى يا أبو على شهدت لك يا رجل الله) وبغتة نهض سليما.. ليس هذا فحسب بل ركض الفرس وأخذ يتمسح بالضريح.. وانطلق الجمع المذهول المغبوط يردد: شهدنا لك يا أبو على.. وتعالت زمجرة الدراويش!.. وتطاولت رقاب ذوى الذقون ..

ولا يقتصر الإحتفاء بتلك المناسبة على بلدتنا وحدها.. بل تشاركنا الاحتفاء بها بلاد أخرى.. مجاورة.. ونائية.. فيفد أهالى تلك البلدان فى مواكب ضخمة.. هائلة.. مسلحة!.. فهذا يهتف: جرجاوى بيه.. وذاك يصيح: دشناوى بيه.. ومنين يا ولد.. قناوى يا بيه.. على حسّ البيه.. وكل موكب يحمل نذوره من الخرفان المرصودة لتلك المناسبة.. والجديان.. والعجول أحيانا.. فلا غرو أن ترقبت بلدتنا تلك الفترة فى لهفة وتأهبت لها قبل حلولها بأسابيع ..

وكنت منذ حداثتى شغوفا بالذهاب إلى المكان المأهول الشاسع الذى يحف بمقام ولى الله حيث تقام حلقات الأذكار بترنحاتها المهبولة.. ودراويشها.. وأناشيدها.. وحيث التمس البركة من «الشيخ رشوان» عميد الطريقة الرفاعية وهو يوزعها على مريديه «وبداياته» وحيث تلك الضجة المتناهية التى تجذبنى إلى دوامتها.. لم تكن الأذكار بطرافتها وحدها هى التى تجذبنى.. فكم كنت شغوفا بافتراش الأرض بجوار الآلاف لأنصت «للشاعر» بحدثنا بمصاحبة» الربابة عن ملاحم أبو زيد.. وصراعه الخالد مع الزناتى خليفة.. كان أبو زيد مثل البطولة فى

نظرى.. والرجـولة الكاملة.. فكنت أتعـصب له وأود من أعـمـاق قلبى أن يتـغلب على خـصـمـه الزناتى.. وكنت أصـفق بجـمـا ع مشاعرى عندما ينتفض الشاعر فى حركة تمثيلية مفتعلة تبدو طبيعية لفرط تكرارها وحذقها ثم يهتف: «أبو زيد أبو شـال على القرن مايل.. شهر سيفه.. وكالوحش راح مايل على خليفة»..

كـان هذا هو مـا يدفـعنى فى حـداثتى إلى الذهاب إلى المولد أما بعدها فأكثر ما كان يغرينى بالذهاب هو رغبتى فى مشاهدة «التـيـاترو» بحـيـواناته المدربة.. وتمـثيله الطريف.. وفـتـيـاته ذوات السيقـان الملفوفة المتناسـقة.. «والبلياتشو» بوجـهة الدميم القمئ المدهون بمخـتلف الأصـبـا غ.. وتهـاويله.. وأفـاعيله.. وخـفـة دمـه! كنت وقتها ساذج القلب، نظيف الوجدان.. تشكل حياتى أحداث رومـانتيكية واجهـتـها صـغيرا. كانت إمتداداتها تفرز فى قلبى الرقة.. والإرهاف.. ولم أكن واجهت الجوانب العتمة فى الحيـاة بعـد.. إذ لم تكن سـهـام الغدر والخسة توالت على قلبى.. يفـعم قلبى الإيمان بالإنسان.. وأحبّ أن أعيش فى بساطة وأن أمارس حياتى فى شرف.. ينبض قلبى بحب الناس حتى لكان هذا القلب يحتضن العالم كله.. الكون بأسره. تثمله بسمة. وتعذبه آهة ..

كان يروق لى أن أندس بين كواليس التياترو.. أستطلع خفايا حياة أهله.. «سنية» الضخمة المترهلة.. بصدرها المكتنز الهائل.. وكرشها الضخم المتكور.. ومشيتها التى تشبة الأوزة.. وتلك « اللبانة» التى تفرقع فى فمها ولا تغادره أبدا.. و «فتنة» اللعوب التى تخطر فى مشيتها المتهادية ذات الغنج بفستانها المشجر.. «وشبشبها» المزوق وقرطها الكبير المتدلى من أذنيها.. كانت تخطر وما فى دلال متميع.. ويغدق عليها فتيان البلد ومراهقيها وأعيانها.. «مناديل» العنب والمانجو وعديد البرايز.. و«حسنة» زوجة البلياتشو بدمامتها الفاضحة.. وحقدها وحديثها المتكرر عن (أمجادها عند ما كانت تعمل فى «سيرك الحلو ويتهافت عليها العشاق!.. ولست أدرى أى عشاق هؤلاء الذين يتهافتون عليها!.. من يدرى ربما كان للدمامة عشاقها كما للجمال عشاقه..!

و«أمينة» قاطعة التذاكر بأحزانها البادية عليها.. وهمومها.. ووسامتها المترعة التى تشوبها غمامات حزن دفين غامض.. يرتسم بوضوح على محياها الأبيض كالقشدة.. وينبثق من أغوار عينيها. ويلوح دوما فى نظراتها.. وتقطيبها الدائم..

وسهومها وحديثها الذى لا يفتر عن زوجها المصدور نزيل المصحة الحكومية.. ووليدها الصغير الجميل الأشقر.. بشعره المتدلى على جبينه كمايسترو عبقرى موهوب.. والذى لاتنى تقبله حتى فى غمار انهماكها فى تأدية عملها ..

كان أصحاب التياترو وكل من يعمل فيه يعرفوننى جيداً.. يعرفون وضع عائلتى بمكانتها فمنها نائب البلدة وعمدتها.. وبعض رجالها يشغلون فى الحكومة مراكز خطيرة.. يعرفون أن عائلتى إذا خاضت معركة فلابد ن تسفر عن أكداس من الجرحى.. وسيول من الدماء وباسم هذا كانوا يسمحون لى بدخول التياترو ومعى «شلنى» بلا مقابل.. وباسم هذا كان من حقى أن أفرض نفسى على كل الذين يعملون فى السيرك بدون أن أثقل عليهم!.. إذ لم تكن لى عنجهية أولاد العائلات وغطرسة أبناء البيوت.. ولم أكن أسبب متاعب لأحد كما يفعل أبناء عمومتى ..

حتى نساء التياترو كن يثقن فى.. فهذه «بيسه» لا تجد حرجا فى أن تكلفنى بكتابة خطاب غرامى ساخن إلى عشيقها فى دمنهور رغم أنها زوجة رسمية لعاطف مدرب الخيول وهذه «أم

عليه» تداعبنى دوما وتعدنى بأن «تكبر» لى مديحة أبنتها الجميلة أو «قطتها» كما تدعوها لتناسبنى !..

وهذا «عم عثمان» المتخصص فى دور «البربرى» لا يكف عن تقريعى أبدا ونصحى بالمذاكرة والإقلاع عن «الهيافة» والمسخرة ويدعونى: «الولد البايظ.. اللى مش نافع البيضة الفسدانة» كل هذا كان طريفا بالنسبة لى سيما أنه يخول لى أن أكون عن كثب من أمينة.. «فتاة الشباك» كان فيها شىء ما يجذبنى ويأسرنى.. قد يكون هذا الحزن الغامض المرتسم على محياها.. وأنا إنسان نمت حياتة فى وجه مقاومة! ولا شىء يضغط قلبى قدر منظر إنسان حزين!.. وقد تكون نظراتها تلك التائهة المغلفة بهذا التشاؤم المرير وريبتها فى الناس.. وشغفها بوليدها.. هذا الشغف الذى يكاد يصل حد التقديس.. وتمسكها بكرامتها واعتزازها بها فى إفراط.. فكل فتاة فى السيرك نالها «الفتوات» وأبناء العائلات.. ما عدا أمينة.. لم يستطع أعتى «فتوة» أن يخدش كرامتها بكلمة !..

كنت أستشعر سعادة ثملة عندما تبتسم لى أمينة.. وتداعبنى بسخريتها اللاذعة وتلمح إلى عينى «المايحة» على تسميحة ثم

تردف: «كان غيرك أشطر يا حدق لسه عليك بدرى.. عينى عليك باردة!.. ولكنها أيضاً كانت تحنو على وتثق فى.. فأحدثها دوما عن حياتى المحزونة.. وعن المأساة المدمنة فى بيتنا.. وعن قسوة أبى وفظاظته.. وإهماله أمى.. وجفاف حياتى من الحنان.. واحساسى بالغربة.. وافتقارى إلى إنسان يفهمنى... وكانت هى تحدثنى طويلا عن حياة طبقتها تلك المستباحة.. الضائعة. والمصير المحزن الذى يتلقف أمثالها فى النهاية.. ثم عن أحلامها بالنسبة لوليدها «اللى ها يطلع دكتور» ..!

وشعرت بأنى أحب أمينة.. أحبها فى شغف وإفراط!.. فقد كان قلبى متأهبا دوما وفى قابلية مذهلة لعبادة أى إنسان يحنو عليه.. وكنت أكتم هذا الحب لأنى أعرف مصيره.. وكثيرا ما ألح على قلبى فى أن أفضى لها بحبى الكظيم فيكبح الخجل رغبتى.. ثم خوفى من أن تحتقرنى أو تستهين بحبى فتعزوه إلى نزوة مراهقة.. كذلك كان يعقلها الإحساس بفجوة الفارق الطبقى ..

ولكن لم يكن بوسع قلبى أن يظل أخرس إلى النهاية فقد صممت ذات ليلة على أن أبثها ما يعتلج فى قلبى.. وتحينت فرصة «التشطيب» فدلفت إليها فى «كشكها» وفى دخيلتى تمور

شتى المشاعر وثمة صراع يدور فى أعماقى ..

حدقت فيها طويلا.. ثم ابتدرتها أمينة ..

لفظت اسمها فى صعوبة.. وهممت بأن أتكلم.. ولكن الكلمات احتبست فى حلقى !..

– مالك يا سى عبده؟.. ولم أجب... فأردفت :

– فيه حاجة مزعلاك يا عبده.. أنت باين مش طبيعى أبدا.. حد مزعلك ؟..

أتكلم يا حبيبى ..

وانتفض قلبى لسماع الكلمة الأخيرة رغم أنها كثيرا ما كانت تنطقها فى معرض الحديث معى !

ولكنها من قبيل العادة.. ليس إلا !

– أبدا مفيش حاجة بس أنا عايز أقول.. يا ريت كنت أختى يا أمينة !..

كان هذا كل ما استطعت أن أعبر به عن حبى ..!

حدقت فى بحنان وامتدت يدها تداعب شعرى المنكوش فى لمسات حادبة ثم قالت :

ما أنا برضه أختك يا عبده.. أنا شاعرة بكده.. إن جبت

للحق يا عبده أنا بكره الناس.. أيوه.. لو عرفت أنا عشت وعايشة إزاى ما كنتش تستغرب من الكلام ده.. لكن مش عارفة ليه أنا حاسة بالنسبة لك بإحساس غريب.. غير إحساسى بالناس.. يمكن.. وقبل أن تلفظها انساب إلينا من بعيد صوت ليلى مراد تشدو بأغنيتها الحالمة: «يمكن با أحبك» وانزلقت من فم أمينة نفس الكلمة: يمكن بحبك ..

ليس بوسعى سبر غور مشاعرى فى تلك اللحظة.. كل ما فعلته أننى قبلت يدها.. وركع قلبى يصلى لها.. لإنسانة أرغمتها التجربة على أن تكره الناس فلما وجدت نموذجا مغايراأحبته !..

– أنا سعيد يا أمينة فى منتهى السعادة.. عمرى ا لقيت حد يحبنى.. مع أنى با حب الناس كلها ..

– لكن أسمع يا عبده.. فيه حاجات كتير مش عاجبانى فيك.. ثقتك فى الناس دى مش كويسة.. كمان شوية العيال دول.. اللى عاملين صحابك.. وبيستكردوك.. تفتكر لولا فلوسك كانوا يسألوا عنك؟ الناس وحوش يا عبده طيبتك دى هاتضرك بعدين ..

– لا يا أمينة أنت غلطانة خالص فى نظرتك للناس.. الناس يا أمينة طيبين.. بس الظروف ى اللى بتفسدهم وتخليهم

وحوش.. وتموت إنسانيتهم.. وكل الخصائص الجميلة فيهم.. الحاجة يا أمينة والظروف.. وكمان تصرفاتهم المحزنة دى نتيجة حتمية لحياة تقوم على الصراع والتكالب والاقتناء والخوف من العوز.. ومن المجهول.. تفتكرى لو الناس عاشوا فى بساطة وضمان لأقواتهم.. ومصائرهم كانوا يبقوا بالشكل ده؟! صحباتى دول شبان لهم مطالب وعايزين يستمتعوا بإمكانيات شبابهم.. وظروفهم متساعدهمش.. يعملوا آيه؟.. لازم يتلموا على واحد زى حالاتى يستكردوه.. وينافقوه.. ويخادعوه.. أنا شاعر بكده لكن غصب عنهم.. الظروف يا أمينة!! كمان أنا باشعر بسعادة لشعورى بأنى أبذل !!..

– أنت طيب خالص يا عبده التجربة بعدين ها تخليك تكفر بالكلام ده .

* * *

لم يكن فى خاطرى أبدا أن أية تجارب مهما كانت بوسعها أن تجتث من نفسيتى نزوعها هذا الإنسانى الذى يضئ حياتى ويمدنى بإحساس غامر بأننى إنسان.. ولكن هذا الإنسان الذى كنته مات وأهالت عليه الأحداث التراب.. فقد سافرت أمينة

ولبثت تكتب لى بضع أسابيع ثم انقطعت كتابتها إلى.. ولم يعد التياترو فى الموسم التالى ولا الذى يليه.. وفى خلال تلك الفترة حدثت أشياء كثيرة جعلت كل ما يحتويه وعائى يتبخر ويذوب ويمتلئ هذا الوعاء بالمواد التى كنت أنكرها من الناس.. فقد أصبحت وحشا يسخر من الإنسان الساذج الأبله.. المخدوع الذى كنته فيما مضى..! ولم أعد أصدق ما كنت أقرأه فى الروايات.

لقد دهمتنى التجربة وتهاوت القيم الجميلة المضيئة التى كان يقتات منها قلبى.. ووطنت نفسسى على أنه لكى أعيش لابد لى من مخلب وناب والإحساس بأنى فى غابة. وفعلا تشكلت نفسيتى بهذا الإحساس الذى لم يعد مجرد نظرية اعتنقها بل فعاليات تتحكم فى كل تصرفاتى.. الفتى المثقف الطيب. أصبح عميلا لأكثر من حانة.. وزبونا لأكثر من بيت سرى.. وعشيقا لأكثر من واحدة من ذوات الخدور !..

كل ما يهمه هو أن يحقق ما يصبو إليه بأى ثمن!.. وبأية طريقة.. والفتى الوديع الذى كانت تكاد تبكيه خطرات النسيم أصبح فظا. شرسا. مشاكسا.. لا يطاق. لقد تغير تماما..! كل ما يهمه هو أن ينتقم لفترة من عمره عاشها ساذجا.. مخدوعا..

وذات صيف وفد التياترو إلى بلدتا وكانت هذه فرصة لإشباع مباذلي.. كل فتاة فيه أصبحت تخشانى بعد ما كن جميعا يتهافتن على ويداعبننى.. فلا تكاد تنقضى ليلة بدون معركة.. وكل راقصة لابد أن تدفع لى إتاوة نظير عدم معاكستها والسماح للزبائن بإعطائها «النقطة» ألست ابن أقوى عائلة؟! وأمينة.. لشد ما تغيرت.. حزينة دوما.. ساهمة فى كل الأحايين.. دامعة.. مهمومة.. وإن كانت وسامتها ما انفكت مترعة!.. فقد مات زوجها فى المصحة.. وابنها الجميل الأشقر اللى ها يطلع دكتور.. «دهسته عربة» ..

وكما تغيرت أنا.. تغيرت نظرتى إلى أمينة.. فى الماضى كنت أحبها فى سذاجة.. الآن أصبحت أشتهيها فى جنون!.. ورغبة محمومة.. ولكنى أبدا لم استطع امتلاكها.. حاولت بالدهاء.. وحاولت بالقوة.. وحاولت بالفلوس.. وفشل كل سلاح أمام صلابتها.. هالها التغير المريب الذى طرأ على نفسيتى واجتاحها فأمات كل الاشعاعات المضيئة التى كانت تنبثق منها.. وذات ليلة كنت ثملا و «فتنة» ملتصقة بى فى وضع مبتذل مثير.. ومرت

أمامى أمينة وفى وحشية قذرة ناديتها :

– خدى يا بنت أنت تعالى.. بوسينى.. ولم تعرنى التفاتا وواصلت سيرها.. وغاظنى هذا ونظرت إلى «فتنة» ساخرة.. لقد تعودت أن أطلب ويتحقق ما أطلبه!.. فكيف تجرؤ هذه وترفض وفى تهور انتفضت واقفا وجذبتها نحوى أحاول تطويقها فى عنف.. وهى تقاومنى بعنف أيضاً.. ومن فمى تنهال شتى الأوصاف الموبوءة ..

– فاكره نفسك مين.. إن كان على ولدك بسيطه.. تقدرى تعملى مكانه.. ومنى أنا..!

ما كدت أتفوه بتلك العبارة حتى احتقن وجهها وطفح الحقد المرير على ملامحها وبدت مثل لبؤة ثكلى.. وفى جنون بصقت على وجهى.. ليس هذا فحسب بل شرعت يدها ولطمتنى.. وأدركت هول ما فعلت فوقفت مشدوهة.. ذاهلة.. حائرة.. تنتظر..!

أمينة تبصق على وتلطمنى.. إنها إهانة.. غير عادية.. هذا ما أدركه الجميع وتوقعوا مصيبة وتقدم الجميع منى يعتذرون.. فى ضراعة.. وسيدفعون الثمن..! سيفصلون أمينة..

وفى تلك اللحظة لم أكن أنا أفكر فى بصقة أمينة وصفعتها.. كنت أستعرض حياتى.. وأندب إنسانا مشرقا كنته..! لقد أفقت.. بلطمة.. وادركت مدى وحشيتى بالنسبة لإنسانة.. محزونة.. ضائعة.. أين عبده الفتى الطيب المشحون كيانه بالإعداد لقضايا بشرية آمن بها وأزمع أن يدافع عنها ؟!

وأحسست بمشاعرى المطمورة تتبلور.. وتطفو.. ومشاعر مغايرة تتوالد فى أعماقى.. وفجأة ركعت أمينة تحت قدمى وهى تنتحب.. إنها لقمة العيش.. ما أبهظ ثمنها!..

– أنا متأسفة.. ما كانش قصدى ..

وكأنها قديسة.. أمسكت بكفها ولثمتها.. مثل ما فعلت مرة.. عندما كنت إنسانا..

– أمينة أنا حاسس دلوقتى أن فيه قوة بتصفعنى.. سامحينى يا أمينة.. أنا مكنتش كده وها أرجع تانى.. عبده بتاع زمان !..

– «أنا كنت متأكدة من كده.. وفاكرة كلامك عن الناس الطيبين اللى الظروف بتفسدهم».. خرجت وثمة إنسان جديد يولد فى أعماقى وأشعر به ينمو.. وفى سبيله لأن يكتمل ..!

---

* لم تنشر من قبل.. كتبت فى أوائل الخمسينيات

رجل لفرنسا

الليل هاجع إلا من رفيف نسمات أشبه بالهمهمة الخافتة عندما تحتك بأغصان أشجار السرو المنبثة فى فناء الدير. فتوقظ فى نفس الراهبة «إنجيلا» أحاسيس غامضة متلهفة وأصداء مبهمة لماضٍ ما دخلت الدير إلا لتسلوه وتنبذه خارج وجودها.. فهى لم تلذ بالدير إذعانا الرغبة مؤمنة فى أن تهب حياتها خالصة للسماء..!! وما كان لها أن تقبل حياة الدير الموحشة الرتيبة لو لم تكن هاربة.. هاربة من ماضيها.. وحبها وذكرياتها.. إنها امرأة تريد أن تنسى.. تنسى حبها الذى وأدته الحرب.. وتنتزع نفسها من نفسها التى انغمست فيه بكل وجود الأنثى.. ولاذت بالدير علّها تسلو ما وراء جدرانه.. باحثة عن السلام بين تراتيل الراهبات وطقوس العبادة ..

ولكن النسياة المأمول الذى قدمت شبابها وربيعها وأنوثتها وعزها ثمنا له أبى أن يواتيها.. وهى الآن رهينة عهدها مع

السماء ونهيا لانفعالات الماضى.. وليس بوسع هذا العالم المحدود المغلف بأوهام السلام أن يفصلها عن هذا الماضى.. إنها أسيرة فطرتها الإنطلاقية مهما حاولت.. فى نوبة يأس ألقت بنفسها فى غمار الحياة التى لا تلائم ميولها.. حياة ضللتها الفجيعة عن أن تفطن لجمودها وخوائها ورتابتها.. وها هى نفسها الأصيلة تطفو فوق سطح شعورها.. أرقة مكروبة ينفلت فكرها إلى ما وراء عالمها هذا.. ترى ماذا فعلت الحرب بفرنسا؟ وأى حياة تعيشها الآن باريس المرفهة المدللة..؟ ألا زالت تنبض بالحياة وتموج بالمرح وعلى أرضها المهزومة تدق أقدام أجلاف النازى ..

وأين يرقد الآن جثمان «فرانك» بعدما التهمته المعركة المسعورة.. إنها لا تعرف إن كانت الأرض التى سفح من أجلها دمه قد حنت عليه فاحتوت جثمانه أم أن كواسر البرارى قد نهشته وما أكثر ما نهشت من جثث أشبال فرنسا.. وعندما انسابت ذكرياتها إلى فرانك أكتنفها الشعور الفادح بالفجيعة وهاجت أشجانها المكبوتة الغافية.. وتوقدت فى روحها جمرة الهوى المشبوب وزرف القلب منها دموعا ضلت طريقها إلى العين

فتولدت اهتياجا ..

كانت طالبة بالجامعة ربيبة بيئة أرستقراطية مترفة.. لا تعرف من الحياة سوى الاستمتاع الشره المتسم بالخواء الوجدانى المجرد من كل مثل إنسانية.. حياة خاملة منحلة يغمرها فراغ مجرد.. حياة الترف المبتذل المنفصل عن معايير الحياة ومواضعات البشر.. العلم فى نظرها ترف عقلى تكتمل به رتوش بيئتها كل ما يعنيها أن تغازل الطلبة وأن تستمد من كونها جذابة ومعشوقة شعورا بالتفوق على لداتها فى عالم الأنوثة كما هى متفوقة فى مكانها من الكيان الاجتماعى.. فهى لا ترى الحياة إلا من زاوية خاصة تكتنفها أضواء خادعة تشع من قيم طبقتها.. حياة كل ما يقال فيها أنها - رغم كل شىء - تافهة معزولة.. وأن كانت فطرة إنسانيتها الغافية خلف سديم ملابسات البيئة تمدها أحيانا بأحاسيس متهيبة مبتورة لم تحاول أن تكشف عنها وتعيها...!! وكانت تراه دائما تشاهد فرانك وهو يروج لمذاهب إنسانى براق ويبشر بعالم جديد ويسهب فى شرح نظريات سياسية واقتصادية وفكرية.. لا تفهم مدلولها.. ولا تفقه مغزاها.. وماذا يعنيها هى من الفن والفكر

والإنتاج ومصادر الدفع الثورى.. فهو دائما لا حديث له إلا عن عالم الغد.. العالم المتماسك الذى يرتكز على أساس وطيد من تضافر المجموع والعمل المشترك.. فهو فى المدرج يتصيد أية ثغرة ينفذ منها إلى التبشير بعالم الغد.. وفى الفناء ينتحى بشلة من الشباب المتهوس يجادل ويناقش ويدحض ويفند.. بغير أن يثور أو ينفعل.. وكان يغيظها انتصاره الدائم عقب كل لجاج ينشب..

وكانت صديقتها الجريئة «سوزان» تنكت عليه وتدعوه «البرجوازى المتمرد» أما هى فلم يكن يروق لها حديثه هذا لا تعيه.. وأن كان يروق لحواسها الذواقة التى تعرف كيف تهضم شيئا آخرا فيه.. يروق لها شبابه الخصب وعوده المفتول كعملاق من آلهة الإغريق.. يروق لها هذا الغموض السحيق الغور المنبعث من مرآة عينيه.. بل يخيل إليها أن وراء غطاء العين الشفاف عالما قائما بذاته تنطلق منه أصداء تنوب فى النظرات المندفعة دائما نحو المجهول.. وكان أكثر ما يغيظها منه أنه لم يغازلها أبدا.. قط لم يتملق فتنتها.. أبدا لم تره يتوقف ريثما يمنحها نظرة مبهورة أو حتى معجبة.. بل يمضى فى سيره وكأنها شىء

تافه لا يستحق أن يوليه نظرة.. أن كل الزملاء غازلوها ولهثوا خلفها.. وقد احتدمت فى صالة الرقص ذات يوم معركة بين ابن لورد إنجليزى وبن زميله الفرنسى لأن كل منهما يريد الرقصة الأولى.. بل أن أستاذ الأدب الرومانى قال لها وقد نسى وقاره وتحفظه: «أنى أراك فى جمالك الفذ المسبى أشبه بخالبة الرومان كليوباترا» وردت عليه فى نهكم لاذع..» ولكنى لا أراك أنطونيو يا مسيو أندرية» فلماذا يتجاهلها فرانك من دون الناس مع أنها تعترض طريقة وتتصدى له فى تعمد وإغراء..؟!.. أن الغيظ يكاد يخرجها عن طورها ويغريها بتصرف أهوج يلفت نظره ولو على حساب كرامتها...! كيف يتأبى عليها وهى التى دأبها أن تمتلك ما تريد.. الامتلاك قانون طبقتها وناموس تربيتها وطابع حياتها.. وأى إنسان فى نظرها مثل قبعة طريفة راقت لها فتاقت لامتلاكها ..

وأرادت ذات مرة أن تستفره فقالت مداعبة متظرفة: «متى تتحقق جنتك الأرضة يا مسيو فرانك؟..»

وأجابها فى برود: «قبل أن نصل إلى الجنة يجب أن نخوض جحيم الصراع..»

– صراع... ضد من يا مسيو فرانك .

– ضد أعداء الحياة ...

– ومن هم أعداء الحياة فى نظرك ؟

– ليس الآن مجال الحديث عنهم... ثم أنى اعتبرك منهم .

– أتخرف يا مسيو فرانك ؟

– ربما ولكنى لا أجيد تغليف الألفاظ.. وكذلك فن مخاطبة الفاتنات.. معذرة نسيت أنى أخاطب أجمل وأشيك حواء أنجبتها فرنسا..! قالها وأولاها ظهره وتركها وحدها ذاهلة.. إنها أول كلمة إطراء تسمعها منه ورغم ما فيها من سخرية بادية غمرتها بخدر لذيذ.. آه فرانك بدأ يغازلها ...!

لولا حياء الأنثى للحقت به لتقول له فى إخلاص متجاهل لسخريته.. «أحقا تجدنى كذلك يا.. فرانك» وبدأت تغزو قلبها انفعالات جديدة.. غامضة ومسيطرة.. أتراها أحبت هذ الطائش..؟ ربما..! ولم لا..؟ ولكن كيف السبيل إليه وليس بوسعها أن تلوى عنان الكبرياء المصنوع من الوراثة لتتمسح فيه... ولكن شريعة الحب سخية..!! فها هى تتصيد الثغرات التى تتسلل منها إلى التقرب إليه والاندماج فى محيطه.. ولكى

تؤهل نفسها لمستواه الفكرى آلت نفسها أن تطالع نظرياته التقدمية.. ويلتهم عقلها الذى شحذه الحب كل ما تلفظه أفواه المطابع من فكر يبشر بعالم الغد.. عالم فرانك.. هاهى تناقشه.. وتلاحيه.. بل أكثر من ذلك تورطت وأخفته - هى وريثة أسهم الصلب والمطاط - فى قصرها الريفى عندما تعرض لمحنة طارئة..

- «بربك لماذا فعلت كل هذا من أجلى وكل الظواهر تهيب بك أن تفعلى العكس..؟: «وهل يمهمك أن تعرف..؟ -: طبعا - «فعلت هذا لأنى آمنت بعالمك وبجدارة مذهبك وعندما يؤمن الإنسان بعقيدة من الطبيعى أن يبذل لها.. ثم أنى.. أنا.. أنا أحبك يا فرانك.. وارتجف كمراهق تستدرجه غانية مجربة ..

-: «قبل أن تتفو هى بهذا الاعتراف.. كان يجب أن تفهمى نفسك وتغوصى فى دخيلتها.. إن دعامات الحب هى تفاهم الروح مع الروح وتجاوب الفكر مع الفكر.. وتآلف الشعور مع الشعور.. وما عدا ذلك من انفعالات طارئة مموهة فهى رغوات زائفة تتولد من التركيب الحيوانى فينا.. وتزحف نحو القلب فى دهاء مضلل.. وأشعة العقل هى التى تفطن إليها وتبيدها.. هناك هوة سحيقة تفصلتى عنك وستنأى بك عنى.. تفكيرى يغاير

تفكيرك نظرتى إلى الحياة لا تتفق ونظرتك إليها.. لى مثلى ومبادئى.. لى فكرة وعقيدة.. لى حياتى.. وأنت ماذا لك..؟ أنا أصنع حياتى وأنت تعيشين حياتك كيفما تجدينها.. أما زعمك الإيمان بمذهبى فهو وهم جسمه لك شىء لا يمّث للإيمان بصلة..

-: لا يا فرانك أنت تشتط أحيانا.. ليس هناك ما يرغمنى على قول ما أنكر أو أن أتسرع بدون أن أتحقق.. أنا أومن بك وبما تؤمن به وها أنا أمامك شكلنى كما تشاء.. اصنعنى كما تريد.. هبنى كتلة من صلصال أغمس بها بصماتك وأخلقها التمثال الذى تريد.. ستجدنى بين يديك عجينه مطواعة.. على استعداد لأن أهجر ترف حياتى وأعيش معك بين المغاور والكهوف.. امرأة غريبة تتكلم.. تغاير كل التغاير الأنثى التى كانتها من قبل.. مؤمنة وعاشقة صادقة ومستعدة.. تفجر فى أعماقها الإحساس الفطرى المستمد من طبيعته إنسانيتها.. كان راسبا فطفا ومبهما فاتضح ..

-: «أى انتصار رائع فذ لفكرة عالم الغد أنت تنضوى أنت- بالذات - تحت لواء دعاته.. صدقينى لقد أحببتك - أنثى - منذ

أمد بعيد. ولكن الفاصل الشاسع كان يحول بين هذا الاعتراف وها قد تدانينا. وها أنذا أحب فيك الإنسان كما أحببت المرأة... فهات يدك من أجل فرنسا.. ومن أجل العالم بأسره.. وعسى أن لا تندمي ذات يوم..» .

وأحست بانفعال يسبق البكاء وكادت تطفر دموعها ولكنها تماسكت وفي ضراعة هتفت:- «فرانك أيها الحبيب كيفما تريدني سأكون» ..

ولكنها كانت قد استقبلت هناء الحب والولاء للتقدم في غمرة الوقت الذي بدت فيه بوادر المذبحة.. بل ها هو البركان ينفجر وتنشب الحرب بعد ما تأزم الموقف ولم تعد مندوحة عن استعمال السلاح ذي الحدين.. وها هو فرانك يخوض عباب المعركة.. بدافع من مبادئه وولائه للديمقراطية.. وللوطن أرض الآباء .. وما كانت هي أقل منه رغبة في البذل وسرعان ما هرعت إلى إحدى الجبهات في لباس الممرضات تحنو على أكداس الجرحى وأنصاف الموتى وتوالت أنباء تقهقر الجيش وبدت طلائع الهزيمة في الأكداس البشرية المهيضة التي تحملها عربات الصليب الأحمر.. وذات ليلة ناعبة.. تلتقط النبأ الأليم من فم زميل لها

عاد من المعمعة مبتور الساق.. لقد سقط فرانك ..

وسقط بعده شعورها بالحياة وماذا يربطها بالحياة غيره..؟!
ماذا بقى لها..؟ إذا كان من الجبن أن تنهى وجودها فإنها لم تعد راغبة فى هذا الوجود.. ولاذت بالدير.. علها تنسى.. ولم تنسى وعندما وصلت إلى هذا الحد من ذكرياتها استغرقت فى بكاء كاد يمزق نياط قلبها.. وتطلعت إلى تمثال العذراء أمامها وهى تهتف.. «ارحمينى يا أم هبينى سلامك يا بتول..»

(٢)

لم تعد فرنسا هى فرنسا.. فالهزيمة التى حاقت بها نفثت فى أرجائها سحب الكآبة ونضت عنها ثوب الجمال.. وباريس الأنيقة ذات الأضواء الباهرة والربيع المتجدد لم تعد هى الأخرى باريس ذات مراتع الهوى ومجالى المرح.. لم تعد تسمع فيها غير التراتيل الحزينة تنعى مجدها الآفل.. وعويل أجراس الكنائس يشق أجواز. الفضاء مؤبنا أشبال فرنسا.. وفى كل قلب لوعة وفى كل بيت مناحة.. إنها فرنسا الضائعة وبرهانها تلك الفرق من جنود الألمان تجوب باريس وتجوس خلال ميادينها فى خيلاء.. معلنة أن السيادة قد غدت من حق الجنس الآرى وحده

وعلى العالم أن يعترف بعظمة الدم الأزرق ..

ولكن إذا كانت فرنسا الجيش قد سلمت.. فإن فرنسا الشعب لم تعترف بالهزيمة وكيف يجرع كأس المهانة شعب قام بأسمى ثورة فى تاريخ الإنسان.. ها هى جماعات المقاومة السرية تتشكل لتمحو عار الاندحار.. وكل منزل أصبح بمثابة وكر تدار فيه مؤامرات تنظيم المقاومة.. ونصب العيون وملء القلوب الشعار الباسل «حتى أخر رجل وأخر امرأة» .

وكما فقدت فرنسا سلامها. فقدت الراهبة إنجيلا سلام نفسها ها هى ساهرة واجفة القلب مقروحة الجفن لم تستطع أن تنسى الماضى ولا أن تهضم نهج حياتها الحالى.. وذات ليلة تناهت إلى سمعها قرعات ملهوفة متعجلة تطرق باب الدير فى إصرار ملح.. ومن بعيد يختلج فى الفضاء صهيل خيل تركض فى خبل قد ألهبتها حمى المطاردة.. وانفرج الباب الصفيق ودلف منه شاب ملثم يلهث من الإنهاك ويكاد يخور فى إعياء وتفهم الأم الرئيسة جلية الأمر فتحول دون سقوطه ..

ويطلب الوافد من إنجيلا أن تأتيه بجرعة ماء وبدلا من أن تتحرك تظل فى مكانها صامدة قد ارتج عليها وقد اعترتها

رجفة.. إن نبرات هذا الصوت ليست غريبة عنها .. ولكن أتراها تحلم.. لقد مات.. مات فرانك.. ولم تتحرك إلا بعد أن عاود الكرة.. وقادته الأم إلى غرفة الضيوف.. ولبثت إنجيلا الليل بطوله أرقة مضناه.. يا الهى أية مشاعر غريبة .

تلك التى استغرقتها ..

وفى الصباح تذهب إليه بالإفطار كما تعود الدير أن يفعل مع ضيوفه.. وما كادت تخطو داخل الغرفة حتى تسمرت فى مكانها مشدوهة.. إنه فرانك.. وما خابت حاسة السمع لديها .. وفى غمار المشاعر المتضاربة المتشابكة التى ولدتها المفاجأة نسيت وضعها كراهبة وجرت نحوه ذاهلة.. ثم ارتمت على صدره العريض ..

– أهو أنت يا حبيبى قالوا التهمته المعركة ..؟

– لقد حوصرت فرقتى وأبيدت لآخرها وأنا الوحيد الذى اخترق الحصار بوسائل تنكرية وهمت على وجهى بين السهول والوديان وعندما بلغت باريس كانت فرنسا راكعة.. ثم عرفت النبأ.. عرفت أنك هنا ..

– وهل الحياة بعدك إلا هباء ..؟!!

– ما كان يجب أن تتنكرى للمبادئ التى زعمت الإيمان بها.. وكان هذا الإيمان يقتضى أن تبذلى حياتك من أجلها وأجل فرنسا فى اتعس وأحزن فترة من تاريخها.. كنت أحسب إن إيمانك بعالم الغد وفهمك لفسفة الوجود قد خلصك من أحاسيسك الفردية وأمدك بمفهوم جديد للحياة.. وإذا بالحياة فى نظرك تضيق وتنكمش ثم تنتهى بمجرد انتهاء حبيب مات ..

– هذا الكلام قد فات أوانه .

– كلا بل يجب أن تعودى لمبادئك ولفرنسا.. إن هذا الرداء لا يلائمك .

– لقد انتهى وجودى بالنسبة للحياة عندما ارتديت هذا الثوب الذى يعلوه الصليب لقد نذرت نفسى للسماء وليس بوسعى التنكر لعهد قطعته بمحض إرادتى .

– أبدا لم تكون حرة الإرادة.. فقد أعمتك صدمة فقدى.. عن فهم حقيقة ميولك.. وزجت بك فى غمار حياة لا تتفق وهذه الميول.. صدقينى أن فعلتك هذه خداع للسماء..

– خداع !!

أجل خداع.. فإن فجيعتك التى هولتها لك الأنانية هى التى

سولت لك دخول الدير فرارا من الهواجس، هل كنت تفعلين ذلك لو اختلف الوضع..؟ ثم أن السماء لا تروق لها فعلتك.. لأنها تريدك أن تلقى بجماع نفسك فى أتون المعركة.. المعركة ضد الغزاة.. وكل قوى الظلام الهدامة التى تسيطر على على دنيانا وتشوه معالم الجمال فيها.. ولكنه الجبن سول لك الفرار.. وفعلتك والانتحار سواء.. فما الفرق بين إنسان ينهى وجوده وبين آخر يمنع عن الحياة وجوده.. أن العبادة الحقيقية هى أن تبذلى للحياة.. وتساهمى فى امتدادها .

– أصمت.. أصمت.. أنت تجدف ومهما حاولت فلن يغرينى منطقك بأن أتبعك.. أنى أعرف سلفا أن إيمانك بالسماء مسألة فيها نظر.. نعم لك إيمانك بالإنسان.. وولاؤك للتقدم ولكنك تؤمن بالتفسير المادى للوجود.. وأخالك ترى أن الإيمان بالقوة الخارقة التى تسيطر على الوجود خرافة.. أجل أنت لا تعترف بالله يا فرانك ..

– يبدو أنك مازلت تفتقريين إلى فهمى أن قوى الظلام تسخر إيمان البشر بالسماء فى خدمة مصالحها ..

وطال النقاش وتشعب وغمرها طوفان من الأفكار وجذبتها

دوامة من المشاعر.. إنها تؤمن بمنطقه.. لقد هربت من الحياة عندما فقدته وها قد عاد.. ولكنها رغم هذا يجب أن تصده.. هكذا أرادت لها الأقدار.. وليس من اللائق أن تتملص من ميثاق أبرمته مع السماء بمحض إرادتها.. إنها مشدودة الوثاق إلى الدير برغمها ..

– فرانك! مهما يكن من أمر فقد فات الأوان.. أذهب لحياتك ودعنى لحياتى.. ليرعاك المسيح .

– إذن وداعا يا أخت! ومهما يكن من أمر فسيظل الشعاع المتوهج المنبثق من أغوار عينيك يضىء لى مسالك الحياة وأنا أخوضها مساهما فى صنع المستقبل.. وداعا ..

وما كاد يخطو خارج الدير حتى انكفأت فوق صورة العذراء تقبلها وقلبها يضرع وهى تردد.. امنحينى السلام يا أم.. وباركيه يا بتول ..

---

* لم تنشر من قبل.. كتبت فى أوائل الخمسينيات

المحتـــويات

صدر من هذه السلسلة

١ - آلام صغيرة وقصص أخرى - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة عام ١٩٩٨

٢ - يوميات عروبة - د. هانى الرفاعى

٣ - مارواه البحراوى - عبد الرحمن شلش

٤ - أبناء نادى القصة - محمد محمود عبد الرازق

٥ - زوجتى لا تريد أن تتزوجنى - فتحى سلامة

٦ - الحى الراقى - فتحى مصطفى

٧ - الياسمين يتفتح ليلا - عزت نجم

٨ - حدائق السماء - محمد سليمان

٩ - الفائزون بجوائز آخر القرن العشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة

١٠ - دلونى على السبيل - محمد الشريف

١١ - الجدة حميدة - حسن الجوخ

١٢ - فستان زفاف قديم - على عيد

١٣ - بحر الزين - حسن نور.

١٤ - من أوراق العمر - محمد كمال محمد

١٥ - إحراج - نادية كيلانى

١٦ - البنات - هدى جاد

١٧ - عاد الأسد .. أسد نبيلا - عبد المنعم السلاب

١٨ - عراف السيدة الأولى - محمد القصبى

١٩ - حكايات عن العربيد - صلاح عبد السيد

٢٠ - السلمانية - صلاح معاطى

٢١ - الفائزون أول القرن الحادى والعشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة

٢٢ - صبحى الجيار والمحنة المضيئة - مصطفى عبد الوهاب

٢٣ - الرغبة الوحيدة - صوفى عبد الله

٢٤ - الغزال فى المصيدة - محمود البدوى

٢٥ - خراط البنات - صفوت عبد المجيد

٢٦ - القصة القصيرة عند ثروت أباظة وقضايا المجتمع - حسين عيد

٢٧ - حوار مع جنية - عصام الصاوى

٢٨ – ليلة موت – عبد الحميد الفداوى

٢٩ – حبيب حبيبى – درويش الزفتاوى

٣٠ – لقاء غير متوقع – محمد صفوت

٣١ – التوأم وقصص أخرى – الفائزون فى مسابقة نادى القصة للقصة القصيرة

٣٢ – أكثر من عمر – عبد الفتاح مرسى

٣٣ – من حياة الحياة – رستم كيلانى

٣٤ – فرحة الأجراس – عبد العال الحمامصى

الإصدار القادم

أنا.. ونورا.. وماعت – رفقى بدوى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)